أحمد أنيس ...
ظلي الضائع

محمد جبريل

أحمد أنيس ... ظلي الضائع

تأليف
محمد جبريل

هنـــداوي

أحمد أنيس ... ظلي الضائع

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ونسدور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ١ ٣٦١٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٣.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

أنا وحدي أعرف ما كان باستطاعتي أن أفعله لكنني بالنسبة للآخرين لست أكثر من مجرد: ربما.

ستندال

١

فتحت النافذة طالعتني الحديقة الصغيرة كأني أراها للمرة الأولى، احتلت السيارات معظم مساحتها، وأحيطت بسياج من الشجيرات المقلمة المتلاصقة. في المواجهة، محطة الأوتوبيس، وقضبان المترو، وأشجار الظل، والسور الحديدي الطويل لنادي الشمس، يداخله سيرك الحلو ومجمَّع الاسكواش والمقاهي ومحال بيع الأطعمة، تخلو حدائقه إلا من بنايات قصيرة، متباعدة، وتلوح في أفقه بنايات جسر السويس. الصخب يصنعه تلاحق السيارات — على الناحيتين — بشارع عبد الحميد بدوي، وتلاصق العمائر وارتفاعاتها — في أقصى اليمين — يشي بما صار إليه الحي.

أعبر الحديقة — كل صباح — نحو السيارة أمام الباب الخارجي. يشغلني التحدث إلى موظفي المكتب، في مسافة السير على الممر الضيق المبلط بالحجارة، يحيط بي، يزاحمهم ثلاثة، أو أربعة، من الحراس الشخصيين، يتوقعون ملاحظاتي، وما أريد فعله. أستكمل كلماتي من وراء النافذة، قبل أن أومئ برأسي إلى السائق جاب الله. ينطلق بالسيارة، يجري المعاونون والحراس، وتليفونات المحمول تهتز في أيديهم. يتشكل الموكب — في انحناءة الطريق إلى وسط البلد — من أربع سيارات. يعبر الحديقة — في ظلمة الليل — عائدًا إلى الفيلَّا، ألقي آخر ملاحظاتي وتعليماتي.

مع أني كنت أعرف الموعد باليوم، وتهيأت لأعوام الإقامة في البيت. تحدثت مع إجلال عن الأماكن التي أنوي زيارتها، الكتب التي أُهديت لي، وأحتفظ بها لأقرأها بعد أن تنتهي مشاغل الوظيفة، الوعد بدراسة مشروعات أقلِّب بها صفحات جديدة. تحدثت عن الراحة، ومراجعة النفس، والتأمل.

لم يكن الخبر مفاجئًا.

كنت قد أعددت نفسي لتلقيه منذ بدأت الأبواب تُغلق أمامي، والمذكرات تُرد بالرفض، والمكالمات التليفونية تعتذر بالانشغال.

تلاحقت التطورات، فتوقعت زيارة مهمة، من لا أعرفه تمامًا، لكن الزيارة وضعت نقطة الختام.

أعددت نفسي لسحب السيارة والسائق جاب الله، اشتريت سيارة بي إم دبليو، السيارة نفسها التي أستقلها في العمل، أزمعت أن أقودها بنفسي.

ما حدث بدا لي مفاجأة كاملة.

قالت إجلال: غلطة الشاطر بألف.

بدا في صوتها ما أثار قلقي.

أنا لم أخطئ فأدفع الثمن. حتى في القعدات الخاصة، أبتعد عن أحاديث السياسة، لا أسأل، ولا أرد إن سئلْت. أكتم مشاعري في نفسي، لا إيماءة موافقة أو رفض، ولا حزن ولا أسى ولا شماتة أو إعجاب. دردشات تخص الآخرين ولا تعنيني، أُهمل محاولات جرِّي إليها. ربما تعمدت أن أتجه بالمناقشة بعيدًا عن قضايا السياسة: فيلم شاهدته، خبر قرأته في جريدة، أسعار العملات، أحوال الجو، دوري كرة القدم ... ما يساعدني على الأخذ والرد، دون خشية من المساءلة.

طالت السهرة في الفيلَّا المطلة على هضبة الأهرام. صحبت أحمد أنيس، وجلست إلى من ألتقي بهم للمرة الأولى. شربت للمجاملة، ثم دفعني الإلحاح إلى الشرب مرة ثانية، وثالثة. تعودت أن أشرب كأسًا صغيرًا من النبيذ، أحاذر فلا أجاوز السكر الخفيف، لا يثيرني تباهي أحمد أنيس أنه يقوى على ابتلاع بِرميل.

قاومت اختلاط المرئيات، وإن اضطرني إلحاح الأسئلة إلى التحدث فيما لا أذكره.

لو أني اعتذرت عن الشرب — وقتها — لم تكن الأمور تنتهي إلى ما انتهت إليه.

كان الأمل يراودني في أن أظل في المنصب، يُمَد لي في رئاسة الهيئة سنوات هي من حقي، لولا المؤامرات المتوالية التي لا أدري مصدرها.

أمر الرجل بإغلاق الحجرة. لم يغادر مكتبه في مواجهتي. ألقى أسئلة كثيرة، عانيت ارتباكًا، نظرت — بتلقائية — ناحية الباب، كأني أتوقع أحمد أنيس، يجيب عن كل الأسئلة.

زاد في ارتباكي أني لا أمتلك إجابة، لا أعرف ما يتحدث عنه، أغناني أحمد أنيس عن الوسائل، فاكتفيت بالنتائج، لا أعرف ما قبل، التفصيلات التي أثق أن أحمد أنيس يعرفها جيدًا.

قال الرجل: ما قلته تستحق عليه السجن، لكن أعوام خدمتك تشفعت لك!

وخرجت الكلمات من فمه بطيئة: لم يقرر المسئولون إقالتك، لكنهم يطلبون أن تقدم استقالتك!

ولوى شفته السفلى: يحرصون على صورتك أمام موظفيك!

صحت بالاستغراب: هل أقدم إجازة بدون مرتب؟

– أفضل أن تقدم استقالة.

– لم أخطئ بما يدفعني إلى الاستقالة.

لا أذكر أني ارتكبت خطأً ما، لا أذكر أني أخطأت على أي نحو. كل ما صدر من قرارات، قرأه أحمد أنيس، راجعه جيدًا قبل أن أوقع عليه.

أخطر ما يواجهني، تلك الحالات المتباعدة، المتقاربة، من الشكوك حول قضية ما. تغيب الحلول، فأتصور أنه لا يوجد حل، يحاصرني الضيق وفقدان الأمل واللاجدوى. تنقذني نصيحة أحمد أنيس.

وشى صوت الرجل بنبرة محذرة: إذا رفعنا الغطاء فستصدمك الرائحة الكريهة.

رويت للشيخ حسن الحاموليِ إمام جامع السيدة خديجة عن حلم في نومي. راعني التحول من هيئة الأنثى إلى هيئة الذكر، رأيت نفسي امرأة وليس رجلًا.

قال الشيخ في نبرة مشفقة: تفسير ما رأيت زوال السلطة من يدك.

– ما شأن السلطة بتحولي إلى امرأة؟!

– هذا هو تفسير الحلم.

ثم وهو يكوم مسبحته، ويدسها في جيب قفطانه: اقرأ ابن سيرين.

اقتحمني شعور بأني أهبط إلى أعماق الظلمة، دون أمل في النجاة.

صرخت بآخر ما عندي، وأنا أسقط في هوة الابتلاع.

قالت إجلال: لم تعتزل بالمعاش، ابتعدت وأنت في القمة.

– أُبْعدت ولم أبتعد.

– شكليات لا قيمة لها.

اهتز فنجان الشاي في يدي، أعدته إلى الطاولة: يشيعون جنازتي في حياتي.

وبلَّلت شفتي بطرف لساني: تثيرني كلمات المواساة والتعزية!

أردفت في نبرة متصعبة: مؤلم أن أتسلم شهادة وفاتي وأنا حي!

هزت إجلال رأسها: لم يحدث.

وفردت ذراعيها على اتساعهما: المستقبل أمامنا.

حدثتني إجلال عن الحياة بعيدًا عن الرسميات. الخضوع للإرادة الخاصة، لا لإرادة المنصب. لم يعد من المطلوب أن أذهب إلى مكان لا أحبه، ولا ألتقي بمن يضايقني رؤيتهم، ولا توقع من لا أريد استقباله، ولا الرد على مكالمة تليفونية في عز الليل، ولا الالتزام بمواعيد قد لا أحب الالتزام بها، ولا الحرص على ما أرتديه من ملابس حتى داخل البيت. أمشي حافيًا، أكتفي بثيابي الداخلية، أدندن بما أتذكره من أغنيات، أشم الهواء الذي يجب أن أتنفسه، النوم في الموعد الذي أختاره، الصحو دون منبه، الأكل دون رسميات، النظر من الشرفة، دعوة النفس على فنجان شاي، مشاهدة التليفزيون، سماع الراديو، قراءة الصحف، إعادة ترتيب المكتبة.

لماذا تقترن فكرة الاعتزال بالمكان الرومانسي: الفيلَّا على الخلاء، البيت الصغير في قلب الغيطان، الجلوس على المصطبة أمام الدار، اختلاط أصوات رفع الأذان، ووابور الطحين، ودوران الساقية، وزقزقة العصافير فوق الأشجار، قضاء الأوقات قرب ضريح الولي، الحياة داخل الصحراء التماسًا للهدوء.

ترامى هديل حمامة، أعرف أنها جعلت لنفسها عشًّا تحت إفريز النافذة المطلة على الشارع الجانبي.

– أنا لست أكبر أصدقائي، تصورت أن الحياة أمامي.

أشحت بوجهي إلى الناحية الأخرى، حتى لا ترى الدمع في عيني: إذا غاب كل أصدقائي، ربما أكون قد مت، أو أن حياتي لن تطول!

استعدت عبارات تلاحقت في وداعي: سنفتقد سيادتك ... تعلمنا منك الكثير ... ستظل لنا قدوة.

تكلم إيهاب شندي عما تحقق في عهدي، جعلت استكماله — على من يخلفني — صعبًا.

قال ماجد الحسيني: بل سيكون مستحيلًا، ما بُني لا يمكن أن تضاف إليه طوبة واحدة!

لم أصدق العبارة حين سمعتها: أعطانا عرض أكتافه.

هل أنا المقصود؟

لحقتها عبارة: أعطانا آخر قفاه، تردفها نظرة ذات معنًى.

أدركت أني المقصود بها.

لم أخف قلقي: هل يعرف حازم ما حدث؟

– ماذا حدث؟

– تركي العمل.

وهي تهز يدها في تهوين: حتى لو عرف، فستظل والده الذي يحبه.

تعرف حبي لحازم، أحبه لأنه ابننا الوحيد، ولأنه يشبهني في تكويني الظاهري: القامة الطويلة، البشرة القمحية، العينين البندقيتين، الأنف المستقيم، الشعر الأسود الغزير، وإن تغلب البياض في رأسي.

اتصل أحمد أنيس بمن أعرفه، ولا أعرفه، حتى تحققت رغبته في دخول كلية الفنون الجميلة. لا يحب الأرقام والإحصاءات ودراسة الجدوى وأسعار السلع والصادرات والواردات، كل ما أناقش فيه أحمد أنيس لما ألزم البيت. يخلو إلى نفسه في حجرته، يقرأ، يرسم اسكتشات، يدير تسجيلات لموسيقيين غربيين، نادرًا ما يجلس إلينا في الصالة، أو يشارك في أحاديثنا، حتى التليفزيون يقصر مشاهدته له في حجرته.

كنت أدرك أن يوم فراق الوظيفة سيأتي، لكنني لم أتصور أن يأتي بهذه السرعة، وبهذه الكيفية.

كنت كل شيء، أصدر الأوامر، أوزع المهام، أوقع القرارات، أصبحت — بالمفاجأة — لا شيء.

ما حدث كان يجب أن أتوقعه من سنوات.

أعددت جيدًا خطوات ما قبل الإحالة إلى المعاش، أخلف الوظيفة بعد أن أمتصها تمامًا، المدة الحقيقية بيني وبين نهاية الخدمة ثماني سنوات. شغلت فكري فيمن يتوسط كي أمد فترة خدمتي ثلاث سنوات. أعرف أن ذلك هو الحد الأقصى لمد فترة الخدمة. أعددت نفسي لمنصب مستشار الهيئة، منصب بالتعاقد لمدة عام قابل للتجديد، سنة، وسنوات تالية، لا أترك الهيئة.

إذا كانت الواسطة من أعلى فقد أتوق لمد خدمتي حتى أشبع. لم أتوقع أن تختفي التوقعات في لحظة لا أتوقعها، ولسبب يصعب أن يأتي في بالي: العداء للنظام.

لماذا يقضون بإعدامي على ثرثرات أملاها السُّكْر، ولا يقدِّرون دفاعي عن النظام، إلى حد الدخول في مشادات كلامية، كادت تتحول — أحيانًا — إلى معارك بالأيدي.

الحياة التي تنتظرني لا معنى لها. لم يعد لدي ما أفعله، ذلك ما عشته بعد أن تركت أحمد أنيس يفعل الصواب، ما يرى أنه الصواب: أستمع إلى الأغنيات حتى أملها، أرفع الأفلام التي أشاهدها في الفيديو فلا أعيدها، أفارق القلق والتوقع والتخمين.

أزمعت أن أفعل ما لم أكن أفعله من قبل. أسير في الشوارع، أتأمل الفاترينات، أقف في طوابير القطار وفواتير التليفون والسينما، أتردد على مقاهي وسط البلد، أقرأ صفحات الرياضة والفن والجريمة، أبدي الملاحظات، فأستمع لنفسي في متابعة المسلسلات ومباريات كرة القدم.

لاحظت في نفسي الميل إلى السير دون هدفٍ ما، أجول في الشوارع، لا أُعنَى بالنظر إلى ما حولي، ألفْتُ اختراق ميدان التحرير، أعبره إلى الأحياء المتصلة به، أسير في شوارع قصر العيني والتحرير وطلعت حرب وقصر النيل، لا أعرف أين، ولا متى أتوقف، يأخذني الزحام والمرئيات والتلفت.

كانت المرة الأولى التي دفعني ما لم أتبينه جيدًا: التعب، أو طلب المغايرة، أو فضول الفرجة، إلى الجلوس على مقعد في مواجهة تمثال عمر مكرم، من حولي زوار المجمع والمارة والباعة والمتناثرون بلا عمل، الجامع إلى اليسار، يمتد من أمامه الطريق إلى جاردن سيتي، يطل عليه مبنى المجمع بنوافذه المتقاربة، الموحدة الشكل، ومحطة مترو أنور السادات، وفي مدى النظر بنك الائتمان الزراعي، والجامعة الأمريكية، وبناية بحري، ولافتات هارديز، وماكدونالدز، وبيتزا هت، ولافتة كنتاكي في موضع أسترا الذي زال بلا سبب، وعمر أفندي، ومحالُّ البازار، وشركات السياحة، ومكاتب الصرافة، ومبنى الجامعة العربية، والمبنى القديم لوزارة الخارجية، وفندق هيلتون، والمتحف المصري، وميدان سيمون دي بوليفار، ومحطات المترو، والشوارع المفضية إلى أحياء القاهرة.

حين مالت الشمس ناحية الغروب، أخفقت في تذكر المكان الذي أقصده. عدت إلى موقف عبد المنعم رياض. اتجهت بسيارتي ناحية الميدان، صعِدت الكوبري عائدًا إلى مصر الجديدة.

صحوت — ذات ضحًى — على هزة قبضتها لكتفي، ونظراتها تشي بالخوف. استدرت إلى الناحية المقابلة: لا شيء أصحو من أجله.

تنبهت إلى السؤال: ألم تعد ترغب في رؤية أحد؟

أشحت بوجهي: لم أعد أرغب حتى في رؤية نفسي!

٢

– من تولى المنصب؟

قال ماجد الحسيني: أحمد أنيس.

همست في صوت كالحشرجة: أحمد أنيس؟

استعدت القامة الصغيرة، المدكوكة، والبشرة الدهنية دائمة التفصد، والجبهة الواسعة، والوجنتين البارزتين، والأنف الذي تعلوه الحمرة لمسحه المتكرر بجانب يده، والأسنان التي اختلط فيها السواد بالصفرة.

أعادت إجلال الاسم: أحمد أنيس؟ ... هذا رجل لكل العصور، خادم لك، خادم لمن سبقك.

لم أواجه إجلال بالسؤال: لماذا ترفضه؟

تبينت — متأخرًا — أني اخترت الشخص غير المناسب، في المكان غير المناسب، لا شأن لأحمد أنيس بالوظيفة، من حيث التخطيط والتنفيذ والإنتاج، لكنه يجيد التآمر والإيقاع بالآخرين.

لم أكن أعرف أحمد أنيس إذن، إنه شخص آخر يختلف عن الشخص الذي رشحته لاختياري خصال تصورتها فيه.

أدركت أن الوقت الذي يضيع لا يمكن أن أسترده، أو أعوضه، السؤال الذي شغلني هو: كيف أجاوز ذلك؟ كيف أحتفظ بالوقت، لا أضيعه؟

أشعر بالاستياء، السخط، الغضب، على من يعبُر حياته، لا يعيشها بصورة حقيقية، يبدو ما مضى بلا أهمية، كأنه لم يوجد أصلًا.

إذا لم أحسن استغلال الوقت، فستكون الحياة قصيرة، هي تطول إن أضفنا إليها وقت الآخرين، نأخذ من حياتهم، نضيف إلى حياتنا.

اختياري لأحمد أنيس هو الوسيلة التي تصورتها، بدا لي عفيًّا، مستعدًّا، يمتلك الفائض من الوقت.

أنقذني أحمد أنيس مما لاحظته أنا في نفسي، صعوبة التحدث في الجماعة، تأخر حضور البديهة بما يرد الملاحظة في أوانها. ربما بداية ما أعانيه في أيام السعيدية الثانوية، والجامعة، والغربة وسط الآخرين، وندرة الأصدقاء، والاكتفاء بالنظر إلى البحر دون التمشي على الكورنيش.

أهم ما حثَّني على الاطمئنان إلى أحمد أنيس، التزامه الصمت، وصيانة الأسرار. لم أكن أتحدث عما رأيته أو سمعته، حتى بالنسبة للأصدقاء وزملاء العمل. الأخطاء الإنسانية واردة، وعلينا أن نهب الفرصة للتجاوز، البالوعة ذات الرائحة الكريهة ينبغي سد فوهتها.

انتهرته — مرة — لدوام صمته: ألا يوجد حولنا ما يستحق أن تكلمني عنه؟

قال أحمد أنيس: نحن في حاجة إلى حب الناس لا إلى كراهيتهم.

قالت إجلال: أنت الذي أعطيته الفرصة ...

ألقيت الجريدة التي كنت أقرؤها، على الطاولة الصغيرة، واتجهت إليها بتساؤل غاضب: أنا؟!

– ما فعلته أنك اكتفيت بالرئاسة، بالواجهة والوجاهة.

دخلني شعور بالحاجة لأن أبل ريقي: أميل الناس للشر يجيدون إخفاء طبعهم!

داخل صوتها تهدج: لكنك اكتفيت بالصمت العاجز وهو يدير الهيئة كما يشاء.

والتمعت عيناها بالغضب: أتحت له أن يستولي على حياتك، ويتصرف كأنه أنت. أنت الآن غير موجود، أو أنك موجود في أحمد أنيس!

شعرت بالكرسي كأنه يهتز من تحتي: أحمد أنيس منديل ورقي، أتخلص منه في الزبالة!

بدت كالصور التي امتصها الزمن، كالأصداء البعيدة، وقفتي في انتظار المصعد، أمام شباك السينما، ومكاتب شركات الطيران، وداخل البنك، وترقب موعد كشف الطبيب، وانتظار إشارة المرور.

مددت يدي — بتلقائية — إلى كوب ماء أمامي، جرعته في دفعة واحدة: هل أترك ما بنيته لملاحظة أبديتها؟

وغالبت ارتعاشة في صوتي: تكلم إيهاب شندي عن الملاحظة ... لكنه لم يحددها.

تراجعت إجلال بصدرها لصوت ارتطام قبضتي بالطاولة: حتى النشال يعرف تهمته ... تهمتي لا أعرفها!

مدت أصابعها، تزيح إلى الخلف خصلة شعر تهدلت على جبهتها: وشاية.

أكلني القلق: ماذا قلت؟

– انس الأمر!

هل تعرف ما تخفيه؟

حين أعاد الرجل التسجيل أمامي، واستمع إلى صوتي، والكلمات التي قلتها، أدركت أن الغلطة تجاوزت كل الأرقام، وأن أحمد أنيس أحسن تدبير فعلته. لم يعد أمامي إلا التسليم بأني تكلمت، وإن كنت لا أذكر لماذا، ولا الظروف التي أوقعتني في الخطأ. أبعدني عن كل شيء، حتى ما ينبغي أن أعرفه لأتدبر خطواتي التالية.

وأنا أتأمل الفراغ: هو محمد أبو الذهب الذي انتظر حتى حقق علي بك الكبير انتصاره، فقتله، وحل مكانه.

ونفضت رأسي: لكنني لست علي بك الكبير.

وأشرت إلى صدري: أنا رضا شهبون.

حين تركت لأحمد أنيس أن يأخذ أوراقي الخاصة من أوراق مكتبي، لم أتصور أنه سيحتفظ بما يرى أنه يبتزني به، لا يريد أن يكون مساعدًا لي، تابعًا لي. كانت عيناه على الكرسي الذي أجلس عليه. عرَف كيف يسدد الطعنة. أجاد اختيار موضع الطعنة فأحدثت تأثيرها القاتل.

هل كانت ثقتي العمياء في أحمد أنيس دافعًا لتآمره ضدي؟

عرَفت أن مؤامراته ومكائده وشائعاته تخلت عن إلحاق الضرر بالآخرين. حاول أن يلحق الضرر بي شخصيًّا. أعرف إجادته صناعة المكائد، وحبك المؤامرات، وإزاحة من يتصورهم خصومًا، التآمر وسيلته في كل ما يريد بلوغه، الشائعات والحيل والدسائس والمكائد والأكاذيب والشكوك، حتى الأشياء البسيطة والتافهة، يلجأ إلى التآمر لحيازتها، حتى أوامري بفرم التقارير، أهملها، يسر لهم الحصول عليها.

كان ينبغي أن أَحدُس ما يُعِد له نفسه في تعلمه الأبراج، وعلوم الفلك، وقراءة الطالع، وفهمه لقوانين الألعاب الرياضية، وحفظه لفرق الوقت في مدن العالم، وللنكات الحديثة، وتردده على معارض الفنون التشكيلية، واقتنائه أهم أسطوانات الموسيقى العالمية والشعبية، وإجادته تلخيص الروايات والمسرحيات والأفلام بما لا يخل بالمعنى.

فطنت إلى استهواء السلطة له، طمعه في المنصب الرفيع. لم أقدِّر أن منصبي، الكرسي الذي أجلس عليه، هو ما كان يتطلع إليه أحمد أنيس، مستقبله الوظيفي معقود على إبعادي عن الهيئة، أو إحالتي إلى المعاش.

كان على استعداد لتخطي كل الحواجز التي قد تعوقه عن تحقيق أحلامه. حتى الإهانة انعكاس لإعزاز تَغلَّف بكلمات قاسية. قد يهمل ما يوجَّه إليه من إهانات ما دام ذلك سرًّا، يخرج من المكان المغلق وعلى شفتيه ابتسامة مطمئنة، يتحدث — بلهجة تبريرية — عن فنجان القهوة الذي شرباه في جلسة هادئة، يثق أن الذي لا قيمة له، ربما يصبح — في زمن يحفل بالمفاجآت — شيئًا مهمًّا، من الصواب أن نحاول خطب وده. رفْض صداقة من نستصغر شأنه خطأٌ يصعب معالجته بعد أن يصبح الشخص ذا شأن. هذا زمنٌ الاستثناء فيه هو القاعدة، وغير المتصور هو الحقيقة.

لو أني كنت مكانه، هل كنت أفعل غير ما فعل؟

لم أكن أتخذ قرارًا إلا بمشورته، حتى قوائم الترقيات والمرتَّبات والعلاوات والحوافز والبدلات والانتقالات والمكافآت والخصومات والعمل الإضافي والجزاءات الإدارية والإحالة إلى التحقيق.

اطمأن أحمد أنيس إلى دوره كذراع يضرب بها رضا شهبون، يتوعد، يرشد، يفعل ما لا يقوى عليه أحد. أعرف أن دفتر التليفونات الصغير في جيب جاكتته العلوي، يضم أرقامًا سرية، وخاصة، لشخصيات تفتح له الأبواب المغلقة. صار لديه أصدقاء نافذون.

هو يفعل — باسمي — ما يريد، يلعب دور الوسيط والسمسار، يعقد الصفقات، يفرض العمولات، يسرق، يزوِّر، يبتز، ينهب، يُرسي العطاءات على سماسرة يعرفهم. من لا يعرف ينسب ذلك كله إليه، يحمِّل الأسعار بحسابات أعباء، ومصاريف غير منظورة. ثمة كشوف أملاها التزوير، مكافآت حضور، سفريات، بدلات سفر، بدلات انتقال.

لا شأن لي.

ذلك ما فعله أحمد أنيس.

أشرد في تقاطع الكلمات وتشابكها: هذه برامج التليفزيون عن مشوار حياتك ... عندي قوائم لكل المناسبات السعيدة للأصدقاء ... وقتك أثمن من أن تبدده في هذه التفاصيل الصغيرة ... نحن أولى بالوقت.

اقتصرت استعانتي به — لفترة طويلة — على الهيئة، والجهات التي تتعامل معها، هو سكرتير وسائق ومدير للعَلاقات العامة، وهو — بعد أن سكتت إجلال عن تردده على البيت — طباخ وخادم وساعٍ، وكنت أجلس إليه في الشرفة المطلة على نادي الشمس قبل أن أنزل إلى العمل. يعرض — في عبارات موجزة — تطورات العمل.

عرَف كيف يسلك سبيله. يفعل أي شيء ليظل مهمًّا، يفعل ما تمليه نفسه، لا أقل ولا أكثر، ولا وازع لديه.

لا يهم إن كانت الوسائل غير مشروعة، المهم أن يتاح الوصول إلى الهدف. لم يكن أحد يعلم، ولا عكست ملامحه، ما يدور في نفسه.

كانت إجلال تفضل أن تبقى في حجرتها لا تغادرها. إذا جلست في الصالة، اكتفت بمتابعة المناقشات بيني وبينه دون أن تشارك برأي.

فسرت اختيارها العزلة داخل حجرتها، بالحرص على مساحة — تحددها — بينها وبين المترددين على البيت من العاملين معي. حتى جاب الله السائق كانت تشدد على شكرية الخادمة، توارب باب الشقة، تأخذ ما يحمله، وتغلق الباب، دون كلام من أي نوع.

قالت إجلال إن العالم لا ينتظر حتى نراجع أنفسنا، نتبين — في تصرفاتنا — الصواب والخطأ، وتوقعات الأيام المقبلة.

تخللت أصابعي بأصابعها، ودنت بوجهها: لنوطن أنفسنا على النظر إلى الأمام، وعلى الفعل!

رنوت إلى عينيها، ميزت — لأول مرة — لونهما البني الرائق، ينسجم مع سمرة البشرة، كنت أحب الأنف الدقيق، والشفتين الورديتين، والحاجبين الدقيقين كأنهما رُسما بقلم، تأسرني عقصة شعرها في شكل ذيل حصان، تطوحه خلف رأسها، والفستان السماوي الشفاف يضفي عليها ملائكية جميلة.

طوقتني بنظرة حانية: إذا أردت إنهاء مسألة سخيفة فلا تتحدث عنها.

وأطرقت لحظة، ثم رفعت رأسها: المجرى الذي تصدر عنه رائحة كريهة لا تتردد في إغلاقه!

وفي نبرة حاسمة: حاول أن تؤدي أعمالك بمفردك.

٣

قالت إجلال: من حق الحبل المشدود أن يسترخي قليلًا!

داخلني الشك في كل ما يحيط بي، وكل من عمل تحت إمرتي. أحمد أنيس حلقة في سلسلة تغيب بقية حلقاتها. غلبني الهم، صرت كثير التلفت، دائم التوقع.

ضغطت على زر «الديكتافون».

قلت للسكرتيرة: لا أريد أحمد أنيس.

قالت إجلال: هو لم يتصل.

– لا أريده الآن، ولا أريده في أي وقت.

وعلا صوتي كالصراخ: لا أريده في حياتي كلها!

كان يجب أن ألحظ انفراده بالأوامر، وأن أكتفي بالوقوف على الهامش، أراقب، وأتابع، لا أفعل ما يساوي وظيفتي.

أصل المشكلة أني لم أكن أريد أن أرهق نفسي في الأشياء التافهة، يغنيني عن أدائها من أضع فيه ثقتي، أطلب فينفذ ما أطلبه، لا أسأل: كيف؟

النتيجة وحدها ما يهمني.

أعاني نفاد الوقت بما لا يتيح لي قضاء ما أريده، تبدل الحال فلا أعرف كيف أُمضي الوقت.

لم يعد عندي وقت أخشى ضياعه. تصالحت مع الوقت دون تصور مسبق، ولا إعداد. لا أضيق بالمكالمات الطويلة، وأتمناها، لا أطرح السؤال إن كانت الزيارة سبقها موعد، أستعيد ما كان من الاجتماعات.

فكرت في أن أنكر وجود الوقت، لا أعترف بتأثيره على حياتي. حاولت أن أصحو وأعمل وأنام، لا يرتبط ما أفعله بشروق الشمس ولا غروبها، ولا أيام السبت والأحد إلى

نهاية الأسبوع. حتى الساعة نزعتها من يدي، فلا يشغلني ما فات ولا ما أترقبه، لكن التأثير ظل قائمًا وممتدًّا. أصر الآخرون على السنة والشهر والساعة واللحظة، أصروا على الوقت.

الرجل اليويو، حصل بقفزاته التي لا تنتهي على أرض جديدة. المساحات التي تطلَّع إليها غابت عن تصوره هو نفسه. أراد المنتهى، المطلق، حصل — بمفرده — على كل شيء، لا يهم إن كان انفراده سيقيده بالعزلة. المهم أن تتواصل القفزات.

تساهلي هو الذي دفع أحمد أنيس إلى استبدال الجري بالخطوات البطيئة. جرى، وجرى، تخطَّى الموانع والحواجز، لجأ إلى الواسطة والعَلاقات الشخصية، عرَف الطريق إلى الصفقات المخفية، والمصالح المتبادلة. ربما ذرف في انفعاله — الذي أثق بكذبه — دمعة حقيقية، ربما داخلني تأثُّر، يغيب عن ذاكرتي أن الأمر كله تمثيل، ناقشني — من قبل — في تفصيلاته.

لم يعد أحمد أنيس الذي أعرفه.

ثمة ناس، بشر، دورهم خدمة الآخرين، تلبية ما يطلبون تنفيذه. هذا هو اقتناعهم، يعبرون عنه بكل الوسائل. من يجري وراء سيارة المسئول ليفتح له الباب، السكرتير الذي يجد أهمية في تدبير مواعيد اللقاءات. إنه يتصور جدارًا لطموحه، يحرص أن يكون آخر ما يصل إليه، يجد سعادته في إتاحة الفرصة للآخرين، لواحد آخر بالتحديد، كي يقفز من فوق الجدار، يمتد شعوره بالسعادة في الفرصة التي يتيحها له ذلك الواحد الآخر.

لم يكن اختياري لأحمد أنيس عن قصد، هو الذي أجاد تقديم نفسه. كان أسرع موظفي المكتب الستة في تلبية نداءاتي: أفندم! يضم كعبي حذائه إلى بعضهما، يكتب تقاريره على اللاب توب بما يعين على القراءة، يتابع اتجاه نظراتي، فيأتي بما تستقر عليه عيناي.

كانت تصرفاته انعكاسًا لتعبيرات ملامحي، وكلماتي، وتصرفاتي. أرحب بالزائر، أبذل له الود — هذا ما يحرص عليه أحمد أنيس — أعتذر عن عدم اللقاء، يحرص أحمد أنيس — في الزيارات التالية — على جفاء التعامل.

كان يرافقني إلى أي مكان أذهب إليه، لعلي أنا الذي كنت أرافقه، ليس سكرتيرًا ولا حارسًا، ولا حتى صديقًا، لكنه ظلي الذي لا يفارقني.

تعددت أسفاري إلى خارج مصر، نسيت الوقفة أمام مكاتب شركات الطيران وكاونتر الجوازات، أنا أعبر قاعة كبار الزوار إلى خارج المطار. أحمد أنيس يسهل كل شيء، هو

يتصرف وإن كنت لا أعرف كيف، تظل حقائبي مغلقة، لا تمتد إليها يد بالتقليب أو التفتيش، أفطن إلى دور أحمد أنيس في الرحلة منذ بداياتها.

إذا بدا السؤال مفاجئًا، لا تواتيني إجابته، فإني أتجه بنظري إلى أحمد أنيس في وقفته بالقرب مني. أطلب عونه، يتدخل بالكلام، أو بالتصرف، دون أن يقتحمني بما يحرجني.

يتفحص عنايتي بالقميص المكوي، ومن الياقة حد السيف — هذا هو تعبيره — والذقن الحليق، والحذاء اللامع.

لم أعد أعرف القرار الذي يجدر بي أن أتخذه، ولا ما يجب عليه هو كذلك. اختلطت الرؤى، وتشابكت، فلا أعرف إلا أنه ينبغي أن أسلم نفسي للهدوء، وما يشبه الاستسلام. أكتفي بالمتابعة الصامتة، الساكنة، لا أفكر، ولا أتكلم، ولا أُقدِم على أي فعل. حتى التصور لم يعد يطرأ ببالي.

يسر لي كل شيء، بدت الحياة جميلة وسهلة وبسيطة، أعيش اللحظة بلا قبل ولا بعد، أحمد أنيس ينهي الإجراءات من ألفها إلى يائها، أخطو في الأرض الممهدة دون تلفت. أنادي، أضغط على الجرس، أجلس في مقعد السيارة الخلفي، أخترق الزحام دون مضايقة، أهمل التفكير فيما أترك لأحمد أنيس أن يُعنى به.

أحمد أنيس وحده هو الذي يفعل كل شيء.

طلبت من أحمد أنيس أن يضع الرجل تحت مراقبته، يكتب تقارير عن سلوكه وتصرفاته.

لما بدا الرجل صعب الاختراق، قال أحمد أنيس في تهوين: دع لي مسئولية التعرف لثمنه.

– ثمنه؟!

– لكل إنسان نقطة ضعف يمكن النفاذ إليه منها، ندفع الثمن الذي يريده.

وعدل ياقة قميصه: ما نفعله لا يعرف الصداقة ولا العواطف، يأخذ عملاؤنا المقابل الذي يقنعهم، فنقدم لهم ما يريدون.

قلت محذرًا: أنت تخطط لكل شيء، لكن النتائج قد تأتي عكسية.

قال بنبرة ملونة: نحن لا نحتاج لشيء، حدنا القانون مهما زادت المغريات.

لكزته بطرَف القلم: أنت شيطان!

وقعت — بإرادتي — في الشرَك الذي أجاد أحمد أنيس نصبه لي، لا يترك المكتب في وجودي، وفي غيابي. يرد على التليفون، يتلقى المكالمات، يدون الأسماء التي أطلبها، أو

تطلبني، يُعِد الملفات وبريد الوارد، يتسلم البريد الصادر، ينسق مواعيد الاجتماعات. يرتب مواعيدي، يذكرني بها، يعد لي المذكرات والمستندات، يتابع في الإدارة القانونية ما تُعِده من المذكرات والمحاضر ومشروعات القوانين، يشرف بنفسه على اللقاءات الصحفية والتسجيل للتليفزيون، وترؤس اجتماعات اللجان. يزيل عني حرج تقديم نفسي، تتلاحق الكلمات من فمه، مختلطة بتقديم الاسم والصفة والقيمة والمكانة، وما يداخلني من أحاسيس بالمفاجأة والاعتزاز والسعادة. يحجز في المطاعم والكازينوهات وعروض الأزياء والسكك الحديد وشركات الطيران. يقف في طوابير المسارح ودور السينما وحفلات الأوبرا. ترددت على أماكن كنت أتأكد من أسمائها قبل أن أرافقه إليها: أندية وفنادق وكازينوهات ومطاعم ومسارح ودور سينما. صحبته — هو تابعي — إلى الأندية والمطاعم ودور السينما والمسارح وفنادق النجوم الخمسة والعوامات والكازينوهات على النيل.

سرعة التصرف هي ما يشترطه أداء عمله.

لم أكن أجد الوقت حتى لقراءة رسائلي الشخصية. أضعها داخل الوراقة، أنساها حتى يذكرني بما فيها أحمد أنيس، يفتحها، ويتصفح ما فيها، يرد على التليفون، يسجل الأسماء، يعتذر بانشغالي لمن يعرف ضيقي باتصالاتهم، ينوب عني في حضور مراسم العزاء، والمناسبات الاجتماعية، وافتتاح مواقع العمل. أترك له مهمة التفكير فيما يرهق ذهني.

أعرف أنه يجيد التغلب على كل العقبات التي ربما تواجهه.

يضايقني الوقت البليد، الخامل، الذي يخلو من معنًى، يمضي فلا أتذكره، أضيفه إلى أوقات النوم، وإن تذكرت شذرات من الأحلام: الفرجة على برامج التليفزيون، الانتظار على محطة الباص، الوقوف أمام شباك القطار ودار السينما والمسرح، الجلوس الصامت لانقطاع التيار الكهربائي، إلحاح الزيارات الشخصية.

الوقت الضائع يتخلل ما بين النوم والصحو وتناول الطعام والقراءة والتأمل. ربما يمتد الوقت رائقًا، لكنه يخلو من إمكانية الفعل. ألاحظ الزائر يكثر من النظر إلى ساعة يده، أحدُس حرصه على الوقت، هو يصل بين زيارتي ومواعيد يتهيأ لها.

لا أستطيع أن أعوض ما فات من الوقت، أو أسترده، كل وقت له ظروفه. لم أكن أريد الوقت لذاته، أمتلك وقتًا لا أعرف كيف أنفقه، أريد الوقت الذي يتيح لي الإدارة على النحو الذي يرضيني، أطمئن إلى المعنى، لكي نفيد من الوقت فقد عرَفنا السنة والشهر والأسبوع واليوم والساعة والدقيقة والثانية، كلها تعني الوقت. لو أني استعدت كل تلك

الأوقات الشريرة، فسأعاني قلة الوقت المتاح لي كي أتم ما أريده. يغيظني من يكتفي بفتح الأبواب وإغلاقها، تنفيذ الأوامر، أداء الخدمات، قيادة السيارة، تسجيل الأسماء، هو يعبُر حياته، لا يعيشها.

أهملت قول خميس توكُّل المحامي: كن على حذر مما يدبَّر ضدك.

استغرقني عالم أحمد أنيس تمامًا. أعددت نفسي — عند بلوغ سن المعاش — لوظيفة مستشار، لا مدة لنهايتها، وإن شحُبت سلطاتي بالقياس إلى ما أمتلكه من سلطة الرئيس.

رنوت ناحية الباب الموارَب، أتأكد إن كان أحد قد رأى ما فعلت.

قلت: أنت تأخذ قراري؟

ارتعشت أهدابه: أنا أحدُس رأيك.

غالبتُ نفسي فلا يَبين ما أعانيه: ماذا أفعل أنا إذن؟

– أنت تخطط وتشرف، وأنا أنفذ.

حدجته بنظرة تفتش عن معنًى غائب: هذا لم يعد يحدث.

خمنت السؤال الذي كتمه في نفسه: لماذا اخترته دونًا عن بقية الموظفين؟

من حقي أن يعاد النظر في موقفي، ما أثير ضدي من اتهامات لا أعرفها. تحدثوا عن اتهامات دون أن يحددوا تلك الاتهامات.

أعرف أنه لا يوجد في مِلفي — حتى من قبل أن أصبح رئيسًا للهيئة — شائبة من أي نوع، المثالية هي الصفة التي تنطبق على مراحلي الوظيفية.

تعددت واردات الهيئة، آلات النسيج والطباعة وخشب الزان والساج والأرو وخشب البناء والأسمنت وصفائح الأسقف والأدوية والورق والدخان.

وقَّعتُ على ما تبينت أنه كان توريطًا في قرارات مشبوهة، لو أنها مضت في مسارها لكان السجن بديلًا للأمر بتقديم استقالتي، ربما خشي أحمد أنيس أن يلامسه الخطأ، فاكتفى بما أبعدني من الشركة.

لم يعد لأحمد أنيس في حياتي ما كان من قيمة سابقة.

الكره لأحمد أنيس يملؤني، يسيطر على مشاعري تمامًا، لكنني لا أتصور حياتي بدونه، لا أتصور أني أتصرف في غيبة من نصائحه وتوجيهاته.

أخشى الفشل.

٤

هذه هي المرة الأولى التي أترك فيها البيت منذ فترة طويلة. أشعر أن المدة قد استغرقت أشهرًا، أو سنوات، تَحدد فيها عالمي بين جدران البيت.

أن أظل حبيس الجدران الصماء مسألة قاسية، لا أتصور، ولا أقوى عليها، ركبني ملل شديد، لا أعرف ماذا أصنع بوقتي.

قالت إجلال: لم تذهب منذ فترة إلى الطبيب.

حدقت في ملامحها، أفتش عما تخفيه: أنا لا أشكو شيئًا.

في لهجة مهوِّنة: الأصحاء يترددون على الأطباء للاطمئنان على صحتهم!

اعتذر الطبيب بمشغولياته عن عيادتي في البيت. رافقتني إجلال، أصغيت إلى النصائح جيدًا: أمشي ساعة كل يوم، أحرص على ضبط السكر، أتذكر موعد تناول حبة دواء الضغط، أتناول — من قبيل الاحتياط — نصف حبة زنتاك، أقصِّر جلستي أمام التليفزيون.

لم يعد من المقبول أن أبتعد عن الناس، يدفعني الخوف — أو ما لا أدري — إلى الاختفاء.

أجدني إنسانًا جديدًا لم أكن أعرفه، أقرب إلى الطفل الذي يخشى تعثر خطواته.

تذكرت نكتة قديمة رواها لي أحمد أنيس عن زعيم سياسي رحل. قيل إنه كان — في نهايات أيامه — ينادي على جرسون الكازينو: هات واحد يقعد جنبي!

الوحدة قاتلة!

التغير ليس حولي فقط، ليس في غياب سيارة الحراسة، والحراس الشخصيين، والمعاونين الذين يلازمون خطواتي، التغير في داخلي أيضًا، في إحساسي بالوحدة.

هؤلاء الذين انتُزعوا من الأضواء والزحام والإعلام والحاشية والسكرتارية والحراس، يصعب عليهم أن يواجهوا العزلة!

ربما كان أحمد أنيس محقًّا في قوله إنه هو صاحب المولد، وأني كنت وليًّا مقطوعًا نذرُه! لا تشغلني الصورة الحقيقية لما كنت أحياه، ما يشغلني هو الحياة نفسها، الأسئلة والزحام والنداءات والهتافات والأضواء والمناقشات والصخب.

أحتاج من يجالسني، من ينصت إلى آرائي وملاحظاتي، يروي لي كل ما يجتذبني، ويثير انتباهي.

معظم وقتي في البيت. لم يعد التليفون يرد على المكالمات: نشكركم على الاتصال، سنتصل بكم في أقرب فرصة. التليفون جانبي، أرفع السماعة في أوقات تعالي الرنين المتباعدة.

أشاهد فيلم التليفزيون إلى نهايته، أشرد، أتنقل بين جزر واضحة المعالم وشاحبة، لكنني أظل في مكاني حتى تعلو أسماء العاملين في الفيلم، أعرف أنه انتهى. ربما تابعت المواد التالية، أو أحرك الريموت كونترول بين القنوات الفضائية.

اعتادت إجلال تنقلي بين حجرات البيت، دخول المطبخ، الوقوف — بالساعات — في الشرفة، شرودي أمام برامج التليفزيون.

الطرقة طويلة، ضيقة، تفصل بين حجرتي النوم والمطبخ والحمام، وبين المكتبة الخشبية بامتداد الجدار، تتخللها نافذة ألومنيوم تُطل على المنور.

ضايقتني جلستها الدائمة في الشرفة، تنشغل بإبرتي التريكو، والشرود ناحية الحديقة والشارع الهادئ.

– هل هذا كل ما تَقوَين عليه؟

بدا أنها لم تلتقط الكلمات جيدًا، فردَّت راحتها جوار أذنها، وحدجتني بنظرة متسائلة.

قلت بالضيق: ألا يوجد في حياتك سوى أشغال التريكو؟!

– هل يضايقك أني أفعل شيئًا مفيدًا؟

– تلمِزين عليَّ! ... كنت أعمل يومي كله حتى أقعدتني مؤامرة حقيرة!

أعرف أنها تتجنب كل ما يثير ذكريات راحلة، خشية أن تنعكس في كلماتي تأثرًا وانفعالًا.

أعادت إجلال ما سبق أن قالته: أنا الآن حر، من حقي أن أعيش — بثيابي الداخلية — داخل الشقة الواسعة، أركب الأوتوبيس، أسير دون وجهة معينة، أتسكع في الشوارع بلا هدف، أجلس على المقهى الذي يصادفني، أتأمل إعلانات الطريق، أدخل في حوار مع جاري — الذي لا أعرفه — في القطار.

لم أكن أحدثها عن العمل وما قد أواجهه من مشكلات، ولا سألتها المشورة في رأي يشغلني. أكتفي — للأسئلة التي تلامس العمل — بكلمات مدغمة تشير إلى المعنى، أو لا تقول شيئًا.

عدم فهمها لطبيعة عملي أساس اختياري لها. هي — وإن كانت لا تعرف — تكملة لوضعي الاجتماعي، واجباتها — كزوجة — تتحدد داخل البيت، لا شأن لها بمذكرات، ولا تقارير، ولا مشكلات تهمني وحدي، وتهم العمل.

تبدل ما اعتدته من حياة. اهتزت الصورة إلى حد التشوش: رنين المنبه، قراءة عناوين الصحف، إجراء المكالمات التليفونية المهمة، التهيؤ للخروج، تناهي صوت أحمد أنيس في المحمول: جاهز يا افندم!

لا يشغلني الانتظار، لا أمارسه. أتوقع أن ينتظرني الآخرون. من المسموح لي أن أضيع وقتهم، وليس من حقهم أن يضيعوا وقتي. أعتذر بالقول: أنا مشغول الآن ... هل يمكن إرجاء هذا الأمر إلى وقت آخر؟ ... هذه المشكلة تحتاج إلى مناقشة ليس الآن مجالها ... سأحدثك عن ملاحظاتي في فرصة قادمة ... أُملي القرار، لا أتوقعه، لا أنتظره.

لم يعد ذلك كذلك.

لم أعد أكتفي بقراءة عناوين الصحف. لم يعد أحمد أنيس يقرأ لي الصحف، ويلخص لي ما يتصور، يعرف، أنه يهمني.

أذكر السؤال وأنا أتلفت في حيرة: أين الصحف؟

قال كمن يتوقع السؤال: سألخصها لسيادتك.

اعتدلت بحيث واجهْتُه: لكنني أقرؤها بنفسي.

– سألخص الأخبار المهمة.

ثم وهو يربِّت صدره: هذا عملي.

أدركت أنه من الصعب أن أعيد ترتيب حياتي، الكثير الذي مضى لا بد أن يتداخل مع القليل الذي يوشك على الانطفاء.

أنا دائم الخوف من شيء قادم، لا أعرف تفصيلاته، لكنه قد يحمل الخطر، وينغص أيامي القادمة، هي حالة دائمة، متجددة، لا أدرك بواعثها، ولا احتمالاتها.

أمامي — على الطاولة الخشبية ذات العجلات — صينية، فوقها شرائح خبز محمَّص، وقطعة زبد، وكوب عصير، وفنجان قهوة. يرافق إفطاري قراءة عناوين الصحف، تُثَبت أمام العناوين التي تجذب انتباهي.

لم يعد الطريق يبتلع وقتًا طويلًا بين بيتي في مصر الجديدة وبين الهيئة في شارع طلعت حرب. ابتعادي عن الهيئة جعل المشوار اليومي من الماضي. لم أعد أذهب إلى الهيئة وأعود منها، بمفردي، أو بقيادة أحمد أنيس للسيارة.

عادت المرأة نبيهة إلى الخدمة في البيت. بررَت غيابها بتدخل أحمد أنيس فيما ليس من عمله. اختلط الأمر، لا تدري إن عملت بما اعتادته، وتنفذ ما تأمر به إجلال، أم تعطي أذنها لأحمد أنيس، تلبي أوامره.

حرصت على ما أشارت به إجلال، لا يشعر حازم بأن شيئًا قد تغير، أخرج إلى الهيئة في الصباح، أعود بعد الظهر. إذا لم أستخدم سيارة الهيئة، فلأن الطبيب نصحني أن أمارس رياضة المشي، أستخدم سيارتي حتى لا تصدأ.

دهمني الملل عقب انحناءة الطريق بخطوات، ربما لأني نسيت عادة المشي. تقلني السيارة إلى الهيئة، أو إلى الجهة التي أقصدها، تعود بي إلى البيت.

بدت شوارع وسط البلد في صورة تختلف عما كنت أراه — خطفًا، أو عند الوقوف في الإشارة — من نافذة السيارة.

سرت في الشوارع بلا هدف ...

أتوقف أمام الفاترينات، أتأمل المارَّة، والعربات، وعساكر المرور، والشرفات، والنوافذ، ولافتات المحالِّ التجارية، وعيادات الأطباء والمحامين والمحاسبين وشركات التصدير والاستيراد، والملصقات الإعلانية، ومناشر الغسيل، واستندات الصحف، والباعة السريحة، والنساء، لا أختار الشارع الذي أميل إليه، أظل أمشي وأمشي، حتى أكتشف أني ابتعدت كثيرًا عن نقطة البداية. أعود ماشيًا في طرق مختصرة، تختلف — بالتأكيد — عن التي قدِمت منها. ربما ناديت على تاكسي.

أكتشف أني على مقربة من مبنى الهيئة، أو أني أسير أمامه تمامًا. أهم بالاتجاه ناحيته، يلحقني التذكر بأني لم أعد أتردد على المكان، لم تعد لي به صلة، الموظفون يعرفونني جيدًا، أهبهم من وقتي لتلقي المذكرات والتقارير، ومناقشة المشكلات، وإصدار الأوامر، حتى من يعجزون — بوضعهم الوظيفي — عن التردد على المركز، ألتقيهم في زياراتي المتقاربة إلى الفروع، يتفحصون جيدًا رئيس مجلس الإدارة، يحرصون على ما يشعرني بوجودهم.

دخلت مكتبة مدبولي بميدان طلعت حرب، لم أكن فعلت ذلك من قبل، قلبت في الكتب المصفوفة على الأرفف، وعلى الطاولة وسط المكتبة. أعدتها إلى مواضعها، تلفتُّ — بنصف عين — وأنا أنزل الطريق — إلى البناية التي تشغل الهيئة فيها ثلاثة طوابق: الباب الخارجي

المنقوش بالحديد المزخرف، الشرفات العالية ذات الزجاج الملون، اللافتات — باسم الشركة — باستدارة الشرفة الرئيسة المطلة على الميدان.

أميل إلى الشوارع الجانبية، بدلًا من أن أمضي في شارع طلعت حرب إلى مقر الهيئة، أرفض نظرات — قد تواجهني — تفيض بالأسئلة والإشفاق، وربما الشماتة، أخترق الشوارع الموازية والحواري والأزقة، رأسي يخلو من أية فكرة عن المكان الذي أتجه إليه.

تطالعني شوارع لم أكن سرت فيها منذ فترة بعيدة، أو لم أشاهدها من قبل.

فطنت إلى أن ساعات ما بين الفجر والتهيؤ للصباح، هي أنسب الأوقات للسير على طريق الكورنيش، أمشي بموازاة الشاطئ، حركة المرور في الشارع قليلة، الضبابية تغلف المرئيات، أجاوز بنايات الهيلتون ودار المعارف والتليفزيون ووزارة الخارجية، أميل من زاوية مقهى السلطان إلى شارع فؤاد، ومنه إلى طلعت حرب، أو أعود — من الاتجاه العكسي — إلى موضع السيارة في موقف ميدان عبد المنعم رياض.

غاب عن حياتي — لعله اختياري — من كنت أجالسهم، نتبادل — في الكازينو المطل على النيل — كلامًا لا صلة له بالعمل، أُفيد من فائض الوقت ولا أعاني قلته، نتنقل بين السياسة، والأغنيات الجديدة، ومباريات الكرة، وتقلبات الجو، وفوائد السير — كل صباح — على رصيف الكورنيش.

التقت عيوننا، وأنا أصعد الدرجات المفضية إلى داخل جروبي، قبالة القصر الجمهوري. تحرك في جلسته إلى جوار الطاولة المنزوية في ركن الفراندا الواسعة، تناثر أمامها طاولات تعلوها شماسي ملونة، خالية.

يغيظني، يقتلني، ما ألاقيه من إهمال وتجاهل، ممن كانوا — قبل أن أترك منصبي — يُظهرون ولاءهم، ويَعِدون بسرعة تنفيذ أوامري، يحزنني أن أظل في المقهى، بينما كل شيء حولي يشغى بالصخب.

ما من شيء أستطيع عمله إلا أن أبقى في البيت، لا أغادره، أكتفي بترقب أوضاع الهيئة بعد أن جلس أحمد أنيس في مقعدي.

لم أعد حتى أتذوق الطعام، لا يشغلني نوعه، وما إذا كان قد أجيدَ طهيه.

قال لي الصحفي ميرغني توفيق إن تليفونه — بعد أن ترك العمل — فقد سخونته. أدركت المعنى بعد أن قلت المكالمات التي تصلني، إلى حد الندرة، إجلال تتكلم في التليفون الموجود في حجرة نومها، وهو ما أفعله في تليفون حجرة نومي، تليفون حجرة المكتب — الذي لم يكن يهدأ عن الرنين — صار صامتًا.

شعرت أني بحاجة إلى من يجالسني، يسمعني وأنصت له. أقسى المشاعر عندما تجد نفسك وحيدًا، ولا أحد يحتاج إليك، لا محاولة للمناقشة، ولا للأخذ والرد، ولا حتى مجرد إبداء التعاطف.

اقتصرت المناقشات في جروبي حول الجماعات الدينية والمتفجرات، وعمليات الاختطاف، وحوادث القطارات، وزحام الشوارع وافتقاد وجود مواقف السيارات، وظاهرة مجاذيب الشوارع، والبذاءات التي يتراشق بها الناس، والعداء في التصرفات.

قال ميرغني توفيق: لم يعد المجتمع — كما كان من قبل — مقيدًا، الانفتاح بدَّل كل شيء.

أردف لنظرتي المتسائلة: هذا عهد الشركات الانفتاحية والبنوك الخاصة ومكاتب الاستيراد والتصدير والمكاتب الاستشارية الأجنبية.

نزع نظارته، مسحها بطرف الكرافتة، ثم أعادها إلى موضعها: هذا عهد تحقيق الطموح.

تعمدت في صوتي نبرة إدانة: هذا عهد الفساد.

وهو يحاول أن يخفي ابتسامته بضم شفتيه: أنت لم تقل هذا الرأي أيام السلطة؟

رشقته بنظرة غاضبة: لم أكن في أي يوم من السلطة.

ظل في هدوئه: هي ليست مقصورة على القيادات السياسية.

وتظاهر بالجدية: لو أنك قلت هذه الآراء وأنت على رأس الهيئة، ربما كانت قد تغيرت أشياء.

التقطت أذني همسة الرجل: هذا رضا شهبون، كان رئيسًا للهيئة.

وعبَّرت تشويحة يده عما ضايقني.

أذهلني أن ميرغني توفيق تحاشاني حين التقينا في شارع سعد زغلول. لم يحاول الحديث إليَّ، ولا حتى الاكتفاء بتحيتي.

أين الود الذي كان يظهره لي؟

في انحناءة الطريق إلى ميدان التحرير التقيت أماني شكر الله، تحاذت سيارتانا تمامًا. كان الطريق متوقفًا. أومأت برأسي، أهملت المفاجأة في ملامحها.

تصنعت الدعابة في صوتي: كيف تسير الهيئة بدوني؟

هزت كتفيها: كل شيء على ما يرام!

وضع الجرسون صينية الشاي على الطاولة، رافق ما فعل بنظرة محدقة، كأنه يفتش عن شيء في داخلي، أو يريد أن يبلغني بما سكت عن قوله.

أزمعت أن أضع من حولي جدارًا غير مرئي، أنصت وأتكلم وأناقش وأبتسم وأضحك، لكن ليس إلى حد المباسطة، لا يرى محدثي الجدار، وإن شعر به، فيحرص على إيقاعٍ محددٍ لا يجاوزه.

عليَّ أن أقود قاربي وحيدًا، بلا مجدافين، ولا شراع، ولا ما يدلني على السباحة الآمنة في أمواج عالية.

هل أغرَق؟

اعتدت السير في الشوارع بمفردي، لا حراس، ولا أصدقاء، أتباطأ في السير، أتأمل واجهات المحال.

ها أنا ذا أخلو إلى نفسي. لم أعرف هذا الأمر منذ سنوات بعيدة، حتى الأوقات التي كنت أغلق فيها باب مكتبي أمام الزوار لم أكن بمفردي، أحمد أنيس موجود دائمًا، ينصح، ويوجه، ويشير، ويقضي بما يراه صوابًا.

أجلس أمام التليفزيون، أشاهد قليلًا، وأشرد غالبًا، وأتثاءب، أنزل إلى حديقة الميريلاند، أسير في التقاطعات داخل الحديقة حتى يدركني التعب، أجلس على أحد المقاعد، تهيؤًا لجولة ثانية، أو أعود إلى البيت، أبحث عما يشغلني، أو أنام.

بقائي في البيت هو ما أطمئن إليه، لا أغادره إلا لضرورة، يرافقني حازم، أو عبد الولي البواب.

صرخت إجلال لرؤية الكلب في يدي، اشتريته من دكان في شارع توفيق: عجزت عن إصدار الأوامر ... تريد التعويض بكلب!

٥

هل أجاد حصاري بتصورات غير حقيقية؟

صدقت — بالفعل — أني لا أصلح للخطابة، ولا أميل إلى المجتمعات، ولا أتحدث في اللقاءات العامة، لا يجذبني ما قد يثير الآخرين، وأعاني التردد في الاختيار، وفي اتخاذ القرار، والمجازفة. لم أحاول السؤال، ولا مناقشة التصرفات التي جعلتني ذلك الرجل فعلًا.

أدركت أني يجب أن أخوض معركتي بنفسي.

انفتح الباب تلقائيًّا، فتراجعت بصدري إلى الوراء. اعتدت أن أدير المَقبِض، وأدخل.

ماذا فعل أحمد أنيس؟

لم تكن البوابة الداخلية موجودة في موضعها لصق الباب، قضَى الحارس القديم — ارتدى يونيفورم — على ارتباكي، بالإشارة ناحية الباب: سيادتك من هنا.

تمنيت لو أن وقفتي لم تطل في انتظار المِصعد، لا أتلفت، فلا أواجه حصار النظرات.

تباينت نظرات الموظفين والسعاة المتناثرين على جانبي الصالة الواسعة، ما بين التساؤل والفضول والإشفاق. ميَّزتُ ابتسامة خبيثة في وجهٍ شاحب الملامح، أفسح لي صاحبه الطريق.

لم ألتق أحمد شافعي، حتى مكتبه الأبنوسي غاب عن مكانه. اخترت أحمد أنيس بدلًا منه. أعرف أنه موظف جيد، وكان أحمد أنيس يلجأ إليه في أعمال كثيرة. هل نقله إلى وظيفة أخرى، أو فصله؟

لا شيء تغير: الباب الخشبي المبطن بالقطيفة السماوية، له إطار من المسامير المطلية بالذهب، على الجدران مرايات هائلة تزيدها اتساعًا، فُرشت — بحجم معظم الأرضية — سجادةٌ حمراء من الموكيت المنفوش، على جانبيه زهور ملونة.

قام لرؤيتي في مدخل الحجرة. اتجه ناحيتي قبل أن أتحرك إلى الداخل. صافحني بمودة، وأشار إلى الكرسي القريب من المكتب.

أهملت ضيقي من رجل الأمن، اكتفى — عند رؤيتي — بانحناءة سريعة، لم يفرد طوله، ويضع راحة يده إلى جانب صدغه، هذا هو ما ألفته بمجرد أن أدخل من الباب الرئيس.

كنت أعرف أني — ذات يوم — لن أصبح قويًّا، سأفقد قوتي، لكنني تصورت امتداد القوة فيمن صنعتهم، من عبَّدت لهم الطريق ليقيموا بنايات حياتهم، لكنهم حاولوا هدم ما كنت بنيته لنفسي.

طالعتني الحجرة الواسعة: الأبواب والنوافذ ذات النقوش البارزة، الزجاج المتداخل الألوان، الأرفف الخشبية رصت فوقها كتب وأوراق وأيقونات صغيرة، الأرض افترشتها سجادة تغلب عليها النقوش الحمراء، فوقها كنبتان متقابلتان، يتخللهما طاولات وكراسيٌّ، والمكتب الضخم في الوسط، من الأبنوس والصدف، وقُبالة الباب مرآة هائلة تغطي معظم مساحة الجدار، وتدلت من السقف نجفة كريستال هائلة.

لم تعد حجرة المكتب إلى ما كانت عليه، ما أتذكره. تغيرت مواضع الدواليب والطاولات والمناضد والكراسي. صُفت فوق الأرفف كتب ومجلدات، وتكومت على الطاولات أوراق كبيرة، مطوية، قَدَّرت أنها لخرائط وبيانات طويلة، وأُسْندت إلى الجدران أوراق كبيرة مطوية أخرى، أُرخيت سجادة صلاة — لم تكن موجودة — على الكنبة وسط الصالة، فطنْتُ إلى أنه يعلن عن أدائه الصلاة في مواعيدها.

هذا هو الكرسي الذي ظل أحمد أنيس يحلم بالجلوس عليه، يدير، يأمر، يقرأ المذكرات، يوقع التأشيرات، يحظى بالمكانة المتميزة.

أعرف أنه لم يعد يشكل على حياتي الخطر الذي كان يمثله قبل أن أترك المؤسسة. تهديداته لأني كنت أرأس المؤسسة، في داخلها، الآن أنا على الهامش، تتساوى كِفَّتا القوة بيني وبينه، يملك كل منا القدرة على إيذاء الآخر، التساوي حتى في الوسائل.

– كيف حالك؟

غابت الابتسامة المعتذرة، حلت — بدلًا منها — ابتسامة تشي بالثقة، أو بالاستهزاء.

وأنا أعاني ما يقتلني: إذا كان مجرد الحياة خيرًا، فأنا بخير!

أحسست أني لا أقوى على النظر في عينيه، هما عينان تفيضان باللؤم والخسة، عينان متوحشتان.

٥

حين زرت أحمد أنيس في مكتبه — للمرة الأولى — بدا رأسه مدفوسًا في أكداس المِلفات والأوراق المليئة بالمستندات والوثائق والمذكرات والدعاوى والدفوع وتقديرات الضرائب والأحكام القضائية.

عرَفت ظروفه جيدًا. لم أكن أعرف حتى اسمه، نبهتني إليه كلمات ماجد الحسيني رئيس قسم الصادر والوارد، يحيل إليه ما تأخر عن أدائه بقية الموظفين، ينجزه في الموعد الذي يحدده الحسيني. لم يخف تأثره — ودهشته — حين تكلم أحمد أنيس — عن الوقت الذي يملكه، إن استغله، فسيبدل حياته. سألت، وتقصيت، وراجعت مِلفه الوظيفي، زاره في بيته من لامسوا ظروفه الشخصية، سكناه مع أمه في إمبابة، ثبات عَلاقته بأقاربه في شبين القناطر، حرصه على استكمال دراسته في التعليم المفتوح حتى بكالوريوس التجارة، تفضيله التنقل سيرًا بين البيت والمؤسسة.

أطلت الوقوف على باب الحجرة، حتى رفع أحمد أنيس رأسه من الأوراق والملفات: أفندم يا سعادة البك.

تأملت الرجل الذي كنت أعبُره في نظراتي: القامة الصغيرة المدكوكة، الجبهة الواسعة، الوجنتين البارزتين، الأسنان التي اختلط فيها السواد والصفرة (صارت بيضاء بعلاج الأطباء)، والبشرة الدهنية دائمة التفصد بالعرق، وإن لم يعد يجري عليها بظهر يده، ثمة علب مناديل ورقية تتناثر على قطع الأثاث. كان يضع منديلًا في جيب الجاكتة، ويحيط معصمه بساعة مذهَّبة، وفي يده خاتم، ويحمل بين إصبعيه مَبسِمًا مذهَّبًا.

سعدت للذهول — وربما الخوف — الذي نطق في ملامحه.

لم أتردد على مكتبه، ولا أي مكان في المبنى. المرئيات ثابتة منذ الباب الخارجي، وصعودي السُّلَّمات العشر، ثم أميل إلى اليمين، والسير في الطرقة المفروشة بالمشاية الحمراء الطويلة، على جانبيها لوحات أصلية، وإضاءة خافتة، مبروك الساعي — في نهاية الطرقة — يسرع إلى فتح الباب.

بدا أحمد أنيس مرتبكًا، لا يدري إن كان عليه أن يظل في وقفته، أم يقبل ناحيتي.

أشرت إليه، فلم يغادر موضعه. أهملت ما ينبغي على رئيس العمل أن يحرص عليه، يستدعي مرءوسيه ولا يذهب إليهم، تأتيه أخبارهم، ويضع جدارًا غير مرئي بينهم وبينه.

اتجهت إليه بنظرة مشجعة: أحيِّي إخلاصك.

– هذا هو عملي.

فاجأته بالسؤال: هل المرتب يكفيك؟

وهو يغالب الارتباك: أدبِّر نفسي.

– ما رأيك في عمل بعد الظهر؟

وشى صوته بارتباكه: سيادتك ...

ثم في استسلام: أنت الرئيس، ومن حقك ...

قاطعته: لا شأن لهذا العمل برئاستي، إنه عمل آخر ... إضافي.

أوكلت إليه تسيير الأمور، أداء الموظفين مهامَّهم، مراجعة الأرقام والأذونات والاستمارات، دفع العمل بأقصى طاقة.

تعمدت ألا أشرح له بواعث اختياري، عليه أن يعرف وينفذ، وإن لم يكن من حقه أن يسألني، ولا أن يناقش اختياري.

لجأت إليه لأن وقتي ضاق عن استيعاب مسئولياتي. قدم لي من وقته بدلًا من وقتي الذي لم يكن بوسعي أن أضيعه.

تبدلت المواضع، يجلس هو وراء المكتب، وأجلس أنا أمامه. التبدل يفرض ما يصعب تخيله، الأوامر والتأشيرات والتوقيعات، لم أعد مسئولًا عن ذلك كله، هي مسئوليته وحده.

هذا الذي يجيد السير على السلك، ويحسن إخراج الأرانب الحية من الحقيبة الفارغة، ويتقن ألعاب الحواة.

متى بدأ الانشغال بإزاحتي؟ ماذا دبَّر وفعل كي يجلس على كرسي الرئيس؟ ينفرد بالجلوس في هذه الحجرة؟

على مكتبه دوسيهات عليها كلمات «سري للغاية»، و«هام»، و«عاجل للعرض على الوزير».

كتمت ضيقي لحرصه على إبداء الانشغال بالرد على مكالمات التليفون، والتوقيع على الأوراق، وإطلاق الأوامر للموظفين والسعاة.

قام من موضعه، أزاح ستارة النافذة، تدفق الضوء إلى الحجرة، بدت المرئيات في غير الصورة التي اعتدتها، الستائر مسدلة، والإضاءة الجانبية تملأ المكان.

خلا وجهه من أثر انفعال وهو يتحدث بكلمات متباطئة. قال إن نشاط الهيئة شمل كل ما يصلح للتصدير والاستيراد، قال إن الهيئة ستزيد من عملياتها خارج مصر، جاوزت الدول العربية إلى دول كثيرة في العالم، تضاعفت العمليات، لا تقتصر على منتجات محددة، قال إنه تنازل عن بدل الجلسات والأرباح لصندوق تكافل الموظفين، وإنه زاد في منح الموظفين وحوافزهم ومكافآتهم، حتى المصاعد الثلاثة أباح استخدامها للعاملين، لم يعد يقصر استخدامه على مِصعد محدد، وقال إن الهيئة ستُدخل أجهزة إنذار حديثة، وتكييفًا مركزيًّا، وأبوابًا تُفتح تلقائيًّا.

ووشى صوته باعتزاز: كانت الحاجَّة تقول إن يدي خضراء.

دفع لي بورقة، فطِنْتُ أنها نسخة تكرر تصويرها. التقطت اسم حسين رشدي، في سياق كلمات كثيرة، وأرقام، جرى تحته بثلاثة خطوط.

دعك أنفه بظهر يده: لنا وقف بناحية شبراخيت، تبينت — وأنا أراجع شجرة العائلة — أني قريب لحسين رشدي باشا رئيس وزراء مصر أيام ثورة ١٩١٩م ... هل تذكره؟

قرأت ما يدور في عينيه: سعد زغلول هو قائد الثورة.

أومأ برأسه: لولا معاونة حسين رشدي للثورة ما أتيح لها الاستمرار.

وسرى في صوته انفعال: كان هو رئيس الوزراء الذي يملك الضغط على سلطات الاحتلال.

– لهذا أقالوه؟

قال في انفعاله: هو الذي استقال حتى يكشف نياتهم.

استطرد كأنه يتعمد نقل الحديث: نسب أبي يمتد إلى حسين رشدي، ونسب حسين رشدي يمتد إلى الخليفة العثماني!

اقتحمني شعور بأني أتعرف إليه للمرة الأولى. لم أجد فيه أحمد أنيس الذي أسأله، وألقي عليه أوامري، وأوبخه. يهز رأسه بالموافقة، أو يهمس بمطالبه.

إن أذنت له بالكلام أمامي، أعاد رواية الحكايات بما يناقض ما أعرفه، الملامح والجزئيات والمنمنمات الصغيرة، ما يبدو عاديًّا، ولا يلفت النظر. يلتقط الخيط من أوله، يتشابك بخيوط أخرى في أثناء الحكي، لكنه يحسن التقاطه دائمًا، لا يُفلت الخيط حتى يبلغ نهايته.

روى كل ما يتعلق بحياته، منذ مولده إلى يوم شغله الوظيفة: متى وُلِد؟ أين؟ من أبوه وأمه؟ المدارس التي لحق بها، والكلية التي تخرج فيها؟ ظروفه المادية، عَلاقاته العاطفية، ميله إلى السهر من عدمه، إن كان يتعاطى الخمر والمكيفات أم لا.

لم يغفل حتى التفاصيل غير المهمة، أو التي قد لا تكون كذلك.

تصاعد في داخلي ما يشبه الغثيان وهو يروي أولى تجاربه الجنسية. لمحه مخبر يلوط بولد داخل خرابة. فاجأه المخبر بأن فصل ما بين فخذيه وأليتي الولد، جذبه من قضيبه دون أن يأبه بتألمه، ولا صرخاته المتوسلة. تمنى — بتحديق النظرات الشامتة — لو أنه مات!

لَّح أنه لا يلتقط الثمار وحده. عليه أن يشارك فيها من يعملون تحت إمرته. هم يفيدونه، فلا بد أن يفيدهم. الفوائد متبادلة، وأول الخيط يجب أن يمتد إلى نهايته، إذا انقطع فلن يؤدي غرضًا.

دون أن يجاوز الهمس: سيادتك تعرف أني لا آكل وحدي!

– ماذا تقصد؟

– نحسُب ما هو مطلوب على خمسة أو أكثر.

لم يعد الوقت يسرقني، أجاد أحمد أنيس سيطرته عليه.

تباطأ في الرد على تليفونه الخاص. نظر إلى الرقم على الجهاز. أخذ السماعة بيد ملهوفة: حنان عثمان؟

وهو يقرن التفاتته نحوي بالهرش في مؤخرة رأسه: سأتصل بك، عندي ضيوف!

هل بدَّلت صداقتها؟ هل بدَّلت بي أحمد أنيس؟ هل لهاني بها، ليستعيدها بعد أن أخذ الكرسي؟!

بدت — حين رأيتها للمرة الأولى — مختلفة تمامًا عما تصورته في كلمات أحمد أنيس، قامة أقرب إلى القصر والنحافة، بينما لم أتصور لها ملامح محددة. نظراتها المحدقة دفعتني إلى تأملها: قامة طويلة، وجسد ممتلئ، متناسق التكوين، وشعر فاحم السواد، مثل هالة حول وجهها، وعينين واسعتين كعيني قطة، وأنف دقيق، يعلو شفتين أجادت تحديدهما بالحمرة، وبعثت ساقاها المدملجتان في نفسي شعورًا كأنه النشوة.

كان الفستان الأزرق ذو النقط البيضاء محبوكًا على جسدها، فأظهر التكويرات والاستدارات. حدَستُ أنها اختارت جوربًا أسود، مزينًا بنقوش، لتَلفِت الأنظار إلى ساقيها.

لاحظَتْ نظرتي إلى الجزء المكشوف من فخذيها ما بين الفستان والجورب. دارت ابتسامة وهي تسحب ذيل الفستان — بعفوية — إلى ما تحت الركبتين.

قال أحمد أنيس لحنان: هذه الاستاكوزا من الإناث ... لحمها أطعم!

ثم وهو يغمز بعينه: لحم الأنثى أطعم في البحر أيضًا!

قلت دون تدبر للمعنى: اكتف بالجندوفلي.

لا أذكر متى، ولا كيف، بدأت أصحبه إلى مجالسي الخاصة وسهراتي؟ ربما لأنه كان يحرص على الصمت ونفي الذات، فلا يتدخل بسؤال، أو بملاحظة، أو ربما تسعفه البديهة — تكرر الأمر فيما بعد — فيروي نكتة، كأني الكرسي الذي يجلس عليه، يقبل عدم الالتفات والإهمال، والإهانة أحيانًا، لا يبدي تذمرًا ولا رفضًا، لا تشغله التزامات من أي نوع.

قلت في نبرة موبخة: أنت تخاطب سيدة محترمة!

– هل أخطأت؟

وأنا أعبر بيدي: هذا التظارف الذي لا معنى له!

لم أكن قد فككت خيمتي، لكنه تصرف — في الأيام الأخيرة — باعتبار أن ذلك هو ما حدث بالفعل. أستعيد الأسئلة والملاحظات والتصرفات، أضع ما كان في رؤية الزمن الحالي، كان يعرف، شارك — بالوشاية — في تقريب لحظة القتل.

هو الذي أتى بها، زودها بتوجيهاته، وما ينبغي عليها فعله، وإن حاول إيهامي أنها خضعت لتأثيري، ووجدت في شخصيتي ما يجذبها.

حاولت استعادة صورة الجسد تحت الفستان. تنزع كل ثيابها، تترك لي إنزال السروال الصغير — كورقة الشجر — من ساقيها، تنحدر يدي من ظهرها إلى خصرها، ثم إلى ردفها، فساقها. أنزع الحذاء والجورب. أمسد الساق العارية بيدي إلى ثنية الفخذ، تتسلل أصابعي من ثنية السروال، تتحسس الشفتان مواضع جسدها، تحيط الذراعان بصدرها، تتشابك السيقان. المضاجعة تأتي متأخرة. أسمي ما يسبقها «الشيء لزوم الشيء».

دفعتني بيدها: أرهقتني بالشيء ولزومه!

بنت الكلب!

ألم تكن عارية طيلة بقائها في البيت، لا تبقي إلا على ورقة الشجر الصغيرة أسفل بطنها؟!

ألم ألعب في هذا الجسد حتى أنهكني التعب؟!

وهو يعيد سماعة التليفون: كنت أخدمها من أجلك.

وربت صدره: الآن ... أنا أخدمها من أجلي.

ومال برأسه إلى الخلف: مثلها — كما تعرف — لا تصادق إلا من يمتلك الفائدة!

واتسعت في وجهه ابتسامة تشفٍّ: أنا أعطي لها ما هو أهم من المال.

لعله التقطها من رصيف الكورنيش، هو الموضع الذي تسير فيه مثيلاتها.

الهيئة مزدحمة بالمستشارين، يقلمون أظافرهم، ويتبادلون كلام الدردشة. أحيا الرغبة في العمل.

لماذا لا يجعلني واحدًا من مستشاريه؟

قلت: إن الانسحاب من الحياة العامة أمر صعب، لكنه حتمي. وقلت: إن المرء مطالب بأن يختار وقت الضوء ووقت الظل في حياته. وقلت: إن الاعتزال قبل الأوان لا معنى له، وتأخير الاعتزال سذاجة تعلو إلى مستوى السخف. وقلت: لكل زمن رجاله.

أومأت له أني على استعداد لأن أفعل كل ما يطلبه مني، كل ما يوافق عليه ويرضيه، حتى يزكي عودتي إلى العمل.

تجاهل إيماءاتي، واكتفى بنظرة هادئة محايدة.

أدركت أنه يبحث لنفسه عن طريق خاصة، لا يشاركه السير فيها أحد.

قال في لهجة أثارني ما شابها من ندية: ستجدني طول عمري في خدمة سيادتك.

ماذا يعني بالخدمة؟ هل يرفض عرضي؟ هل طلبت منه من قبلُ أي شيء؟ هل هي محاولة لتسريب الإهانة؟

نهضت مستأذنًا.

علا صوته — وهو في كرسيه — بكلمات تستبقيني، استعاد الكلمات التي تخلو من الحرارة، وطريقة إلقائها، من زمن وقوفه جانب مكتبي.

أنا الآن الرجل الذي كان، وأحمد أنيس هو الرجل الذي صار. ما كنت أمتلكه، ما كان في قبضتي، لم يعد كذلك. غاب، أو تلاشى.

لم يكن للخسارة موضع في حياته. يجيد اقتناص الفرص، والدخول في مغامرات البيع والشراء، والصفقات التي لا تخيب، المناقصات والمزايدات والتوكيلات والشركات المتعددة الجنسيات، كل الأمور تسير حسب القوانين والأنظمة واللوائح.

دخل الساعي مبروك. وقف في هيئة من لديه كلام يقوله، لم يُعنَ حتى بأن ينظر ناحيتي، الكلب!

– الأستاذ محمود البولاقي يظن أني أبلغ سيادتك بآرائه في أحوال العمل داخل المؤسسة.

واجهه أحمد أنيس بعينين ناريتين: ولماذا يظن؟ ... لو أنك أخفيت عني ما تراه أو تسمعه فسأدمرك!

تساءلت — بيني وبين نفسي — هل يصفي حسابات قديمة؟

هو واحد من الذين أكلوا من صحني، ثم بصقوا فيه. تناسوا الخيرات والجمائل والخوف والمداهنة والتملق، كأنهم نزعوا جلودهم، فبدوا في أجساد لم يسبق له رؤيتها.

وهو يقلب أوراقًا في يده: قرأت كلماتك في الجريدة.

وحدجني بنظرة متسائلة: من تقصد بالرجل الأول؟

فطنت إلى معنى نظرته: لا أقصد رجلًا بالتحديد.

استطردت فيما يشبه الهمس: أظن أن ترتيب منصبك لم يكن الأول في البروتوكول.

كرمش الضيق ملامح وجهه: دعك من البروتوكول. أنا أعرف وأنت تعرف أنك تقصدني.

هذا ما أخفقت في تعلمه منه: يتخذ موقف الهجوم، يجد في الدفاع أذى لصاحبه.

قهرني الانفعال: أنت لا تريد أن تظل كما أنت.

صنَعْتُه، تمرد عليَّ، أشبَهُ بما فعلَتْه جالاتيا مع بيجماليون الذي صنعها.

وهو يغتصب ابتسامة: أين أنا؟

– في الرقم اثنين، أنت الرجل الثاني، لكنك تريد الرقم واحد.

– في الحقيقة أني كنت الرقم واحد ... وهذا ما أنا عليه الآن.

الحروف والكلمات والجمل تتقافز من حولي، يصعب أن أشكل منها معنًى أطمئن إليه. حدَست أن القوى المتصارعة في داخلي تكفي لتدمير الكون.

وهو يتأمل ما لم أتبينه في الحجرة: تعرف أن انتظار الصيد يحتاج — بعد إلقاء السنارة — إلى الصبر.

وكور قبضته: من حقي أن أحصد ثمرة صبري.

– صبرك على ماذا؟

– حقي! ... كنت أنا الفعل، وكنت أنت الواجهة!

عاد بنظراته إلى الأوراق أمامه. لاحظت أنه لا يحاول القراءة، مجرد أن ينهي اللقاء. تهيأت للانصراف.

٦

إذا كانت الرائحة كريهة، فلا ترفض شمها، وتسد أنفك. الاختناق الذي قد يصيبك بالموت، سيجبرك على إفساح رئتيك للهواء، بصرف النظر عن رداءته. المثالية لا تعني التصلب والتشدد، لا تعني المواقف الحادة والباترة، فهي قد ترتد إلى المرء بعكس ما يأمله من نتائج.

سرت في صوته نبرة تحذير: يجب أن نتعلم ما لم نقرأه في الكتب، ولا تعرفه المعاملات التجارية!

وعبر عن المعنى بهزة من إصبعه: لا بد من أن تضع حاجزًا بينك وبين مرءوسيك، إن لم تحرص عليه ضاعت هيبتك!

اعتدت أن أظل في مكتبي حتى أطمئن إلى اكتمال الحضور في قاعة الاجتماعات. يسبقني أحمد أنيس إلى دفع الباب الموصل بين المكتب والقاعة، ويعلو صوته: الأستاذ رضا شهبون.

أكتفي بهزة رأس، وبنظرة تمسح الوجوه المتطلعة. أشير للوقوف بالجلوس، وأجلس.

جعلت لنفسي — بإلحاح من أحمد أنيس — موعدًا، ساعتين كل مساء في بهو فندق سميراميس، ألتقي فيها أصدقائي ومعارفي، ومن يقصدونني في خدمات.

ينبهني إلى ضرورة المرور — بين فترة وأخرى — في أقسام المؤسسة، يسبقني بخطوات مهرولة، وعينين تتفحصان حتى وقفة الموظفين وراء مكاتبهم بالبدل الكاملة.

شدد أن أضع نفسي في إطار من الهيبة والوقار. أمسك حتى عن الضحك لنكتة، أو عبارة ساذجة، فلا تهتز صورتي أمام الأعين التي تلتقط ما يسيء، ما يهز صورتي، أو يضعها في غير إطارها الصحيح.

بدلت بالسجاير السيجار الهافاني، أحاذر حتى لا يزيد وزني، أقصر طعامي على الخُضرَوات وحبات قليلة من الفاكهة، أحرص على حمامات السونا والجاكوزي والبخار.

سيطر على مشاعري وتصرفاتي، وما ينبغي أن أقوله، أقلب الرؤية في ذهني، أطمئن إلى صوابها، يهبني إنصاته، يقول في لهجة محايدة: جميل، ولكن. أستغرب من نفسي أني أبدل ما كان قد استقر في ذهني تمامًا، ما بدا هو الرأي الصحيح.

خضعت تمامًا لآرائه وملاحظاته واقتراحاته، هي الإطار الذي يصعب — حتى لو أردت — أن أغادره.

الطيبة والشر ليسا في المطلق، لا يوجد إنسان طيب تمامًا، ولا شرير تمامًا، هي درجات من الطيبة أو الشر. لا أحد يستعصي على الإغواء، إذا ضغطنا على نقطة ضعفه، فسنرى العجب.

أَعَد مِلفات لكل المتعاملين مع المؤسسة، كل التفصيلات ذات القيمة، والتي لا أهمية لها، قِطعُ الفسيفساء الصغيرة تصنع اللوحة الكاملة، ما يبدو تافهًا قد ينطوي على معان تستحق الالتفات. سجَّل القوائم على الكومبيوتر، مديري الشركات، ورجال الأعمال، ورؤساء الهيئات التجارية. حرص أن يلخص الأنباء والتقارير الإعلامية، يتيح لنفسه متابعة الأحداث.

له مصادره التي تمده بالمعلومات. يفيد من عَلاقاته المتشابكة في التعرف إلى ما قد أجهله شخصيًّا، أو تغيب صورته الحقيقية، يوزع أخبار نشاطي على الصحف ووكالات الأنباء والقنوات الفضائية، يتأكد من تلقي دور الصحف هداياي ورسائل التهنئة والتعزية، يحرص أن تظل الحقائب — بعد كل رحلة إلى الخارج — مغلقة، لا يفتحها إلا في وجودي، يقرر من تذهب إليه هداياي، ومن لا يستحقها. الصداقة ليست حالة دائمة، والرجوع إلى قوائم الأصدقاء بالإضافة والحذف تحتمه طبيعة العمل، هدية صغيرة تكسب الفهم والود في البداية، وتكسب الخدمة التي أطلبها في الخطوة التالية، أُوقِّع على شيكات تبرع بقيمتها للمدارس، ودور المسنين، والجوامع، والملاجئ. أتلقى دعوات من سفارات ومؤسسات حكومية وأهلية وأندية ومعارض فنية وعروض موسيقية. الجنازات وسرادقات العزاء وحفلات عقد القران والزِّفاف، فرصة للمجاملات الاجتماعية، يدفعني للحرص عليها، يضيف إلى أهميتها — في رأيه — أنها لا تكلف شيئًا، مجرد مصافحة، وكلمات مدغمة لا تعني شيئًا محددًا. ربما صحبني إلى أماكن أتردد في الذهاب إليها. حتى المناسبات التي لا أحضرها، يرسل هو باقات الورود، أو برقيات التعزية.

صارت لي — بمبادرات منه — صداقات مع وزراء في الحكومة، وسابقين، وقيادات سياسية، ورجال أعمال، ورؤساء بنوك، وسفراء عرب وأجانب، وقضاة، وصحفيين، وأعضاء في مجلس الشعب، وفنانين، وفنانات، وموظفين كبار.

تصرفاته تميل إلى السيطرة. لا أذكر الكلمات أو مرادفًا لها في سياق كلماته، لكنها تنعكس في صيغة الأوامر التي تسم ملاحظاته وتوجيهاته ونصائحه، أنت تحتاج إلى مساعدتي فانتبه، لا يتيح الاستفسارات، ولا الأسئلة، ولا محاولة الفهم.

هو يملي ما يجب أن أقوله أمام الناس، ومتى ينبغي أن أحتمي بالصمت. حتى الثياب صارت من اختياره، لكل مناسبة ما يمكن ارتداؤه، حتى الجينز الذي لا أذكر أني ارتديته، نصحني أن أحضر به ندوة عن التقدم الاقتصادي في كلية التجارة، يحب الشباب أن يتحدثوا إلى من يقارب تفكيرهم.

كنت أحرص أن أبتسم، بمناسبة، وبلا مناسبة. أصول العمل تدفعك إلى فعل الابتسام، لا أهمية إن بادلك الضيف ابتسامة مماثلة، أم وضع على وجهه قناعًا من الجهامة، ينفرك من الحياة كلها؟!

نصح أن أظل بعيدًا عن كل ما قد يأتي بالشبهات، وضعي الوظيفي يقضي بأن أجعله هو الذي يتولى — باسمي — عقد الصفقات خارج العمل، هو الذي يتصدر المشهد، ينشغل باللقاءات والاجتماعات وكتابة البيانات والرسائل.

الوظيفة العليا تعويض، أو امتداد مناسب، للأيام القاسية، تشحُب، أو تغيب، الصور التي مثلت حياته.

وثَّق صلاته بالوزراء وكبار موظفي الدولة بما يضمن رعاية مصالحه. يحرص على حضور الحفلات والمناسبات الاجتماعية، قد يلجأ إلى تزكية تليفونية، بطاقة، هدية لا تخلو من معنى. لكي نحصل على ما نريده من مكانة، فلا بد أن نقترب من السلطة، نلامسها، نلاصقها. صار له أصدقاؤه من الوزراء الحاليين والسابقين، وكبار موظفي الدولة، ورجال الأعمال.

حين وصفه رشيد مصيلحي — ابن قريته — أنه قد أصبح سفير طوخ طنبشا في القاهرة، ابتسم في صمت وسعادة، هو يسعى لتعيين أبنائهم في المصالح الحكومية، إلحاق الأولاد بالمدارس والوظائف، إنصاف من تخطته الترقية، تيسير العلاج في الخارج، السفر في بعثات تعليمية.

كان يتخلص من حياته الماضية، يتطهر منها، يحرص على صداقة الشخصيات النافذة. يثق أنه كلما زادت صداقاته، زادت قدرته على الكسب، يوحي لمحدثه أن مصادره

السرية تمده بالمعلومات، وعَلاقاته جيدة بالشخصيات المهمة، يجيد الاتصال بالقيادات العليا، تأكيد ولائه لهم، يُقبل على حياة جديدة تغيب تفصيلاتها، لكنها تحيله إنسانًا آخر، له عاداته المختلفة، الجديدة.

قال لي عن رئيس بنك المستقبل: ثق أن كل شيء وكل إنسان قابل للشراء!

أومأت ليستكمل ما يقوله.

– المهم أن نجد الوسيلة التي تغريه بالقبول!

حدجته بنبرة مستفهمة: الكلام يستمد حجته من قوة قائله، المال هو هذه القوة.

ازدردت ريقي لأزيل الجفاف في حلقي: اعرض عليه ما يقنعه بإغلاق فمه!

وهو يتظاهر بالحيرة: لا تحدثني عن المال، فالرجل مستور!

ثم غمز بعينه: في الدنيا مغريات ألذ من المال!

إجلال دائمة الاعتذار عن الخروج. صحبني أحمد أنيس إلى الأندية والفنادق والمطاعم الفاخرة والكازينوهات والمسارح ودور السينما. حفلات الاستقبال ومآدب الغداء وحفلات الكوكتيل والليونز والروتاري والأندية الرياضية والاجتماعية. جلسنا في يوتوبيا والصفوة وجاردينيا وبالم هيلز. الموائد المنفصلة، والسجادات الوثيرة، والأضواء الخافتة. تناول مشروبات لم يكن عرفها من قبل: القهوة التركية، القهوة الأمريكية، الإكسبرسو، الكابتشينو، النسكافيه، لم يعد يثيره تطاير سدادة زجاجة الشمبانيا، انتتر — في المرة الأولى — عندما علت الفرقعة، بتدوير السدادة، وانبثقت الرغوة البيضاء. ردد مسميات شانيل وكريستيان ديور ومدام روشا وجيفنشي وبيير كاردان وكارفن ونينا ريتشي وباكو رابان وإيف سان لوران.

وضع كل الخيوط بين يديه. أجاد — بما لا يحتمله عمل الهيئة — توزيع أعوانه ومرءوسيه في الوزارات والإدارات وهيئات الدولة ومعسكرات الجيش وأقسام الشرطة. حتى الأندية والهيئات الأهلية والجامعات، تناثر فيها أرصاد وعيون، ينقلون له — في تقارير مختصرة، ومطولة — ما تلتقطه آذانهم وأعينهم من المناقشات والهمسات والشائعات، ينقلون حتى تعبيرات الأيدي والنظرات التي تعني شيئًا لا تنطقه الأفواه.

لم تقتصر عيونه على موظفيه. أوكل إلى عيون من النساء مهام الملاحظة والمراقبة وكتابة التقارير.

٧

جاءني صوتها عبر التليفون. أعرفه: النبرة الرائقة، وإن سرى فيها ما يشبه مغالبة النوم.

كنت قد اتخذت قراري — في اللحظة نفسها — أن أرفع سماعة التليفون، وأكلمها. هي تعرف ماذا حدث، وكيف احتل أحمد أنيس مقعدي، تعرف كل شيء. لماذا لا أقفز على الملابسات وأكلمها؟ لا أريد استمرار ما كان، فهو لم يبدأ، ولا بد أن ينتهي بإرادة أحمد أنيس. مجرد التصور أني قد أعرف منها ما لا أعرفه، الأوراق التي ربما حرص أحمد أنيس على إخفائها.

– أنا شهبون.

– واضح.

– فهم أم سخرية؟

دنوت بالسماعة من فمي، وقاومت الارتباك: هل تأتين إلى شقة الدقي؟

هي ما نصح به أحمد أنيس: إذا امتلكنا شقة، فلن تعاني الحرج في لقاءاتكما.

غاظتني الجدية في نبرتها: أخشى من أفكارك الخبيثة؟

علا صوتي: لست غريبة عن الشقة.

– الظروف الآن تختلف.

أهملت المشاعر المتناقضة في داخلي: هل نلتقي في جروبي أو في لوبي شيراتون الجزيرة؟

أتت الكلمات متثاقلة: خمس دقائق فقط. مشاغلي كثيرة.

داخلني غيظ — ولعله غضب — من لهجتها الآمرة، كأن أحمد أنيس قد أحسن تعليمها. تخلصت منه، لم يعد في حياتي.

هل أتخلص منها؟

في المرة التالية، ظل رنين التليفون، ثم توقف. تكرر الأمر، فعرَفت أنها ترفض استقبال مكالماتي، يظهر الرقم، فلا تحاول رفع السماعة حتى ينقطع الاتصال.

أغلقت السماعة، وشعور يتملكني أني لن ألتقيها ثانية.

جذب أحمد أنيس حنان من ساعدها، فأوقفها عن الرقص: أنت ترقصين بخصرك، الرقص بالجسد كله.

تصورت أن ملامسة ساقها (حنان) لساقي مصادفة، لكنني أدركت المعنى الذي لم أفهمه بمداعبة إصبع قدمها. تسللت نظرتي أسفل الطاولة، تبينت أنها نزعت الحذاء بما يحدد المعنى. ظللت ساكنًا في جلستي، أعاني الارتباك، والخوف من أن يلحظ أحد ما يجري تحت الطاولة: المداعبة، والجرأة، والاقتحام.

لاحظت أنها تحرص على إغوائي في كل كلمة وتصرف وإيماءة، حتى الثياب تختار ما يلفت انتباهي، تتأمل — بنظراتها المتسائلة — تأثيرات ما تفعل على ملامحي. يطل من عينيها غُنج، أشعر بنشوة لملامسة ساقي ساقها المدملجة، مداعبة قدمها لقدمي، لكنني تظاهرت بالهدوء، وواصلت الكلام.

خايلت عيني، شغلت تفكيري في أثناء العمل، لا أستطيع التركيز في أي تقارير أو مذكرات، أتركها لأحمد أنيس، يقرؤها جيدًا، ثم يبدي رأيه.

هل أحببتها؟ هل تحولت العَلاقة — التي تصورت أنها طارئة — إلى حب، يشغلني إن كان سيتاح له الاستمرار، أم أن نهايته في انعطافة الطريق؟

قال أحمد أنيس: أي المنشطات تتعاطاها؟

أربكني السؤال. قلت: لا أتعاطى مكيفات من أي نوع!

– تريد أن توهمني بفتوتك ...

ومد يده في راحتي بحبة صغيرة: إذا شعرت بفائدتها، فسأهبك جرعات كاملة.

غمز بعينه، وأردف: الفياجرا ألغت تقدم السن، ابن الأربعين يضيف خبرته إلى عافية ابن العشرين.

قاومت الغضب: لم أبلغ بعدُ مرحلة الاحتياج إلى اختراعاتك.

ورمقته بنظرة مستنكرة: أنا لا أفكر في تعاطي الفياجرا.

ساءتني اللهفة التي قدم بها عرضه، مثلما ساءني العرض نفسه.

لم يكن يأذن لنفسه أن يجاوز حياتي داخل المكتب وما حوله، البيت، إجلال وحازم، حياتي الشخصية التي لا يقترب منها. ما حدث هذه المرة هو اقتحامٌ صعِد بالسخونة إلى أذني.

عرَف الكثير من أسراري الشخصية، لكنني حرصت أن أبعده عن أسرار أسرتي. ربما كان لإجلال دورها في أن تنتهي خطواته عند باب الفيلَّا، لم تكن تخفي كراهيتها له، وكان يدرك هذه الكراهية.

لماذا يتصور أني أعاني ارتباكًا في حياتي الجنسية؟

لم تكن العَلاقات الجنسية — في أوضاع أتصورها — تترك ذهني معظم الأوقات. إذا تحدثت إلى فتاة، أو امرأة، حلا لي أن أجردها — بخيالي — من ثيابها. ربما أطلت التفكير في عَلاقة ما، مع فتاة أرسم ملامحها من ممثلة، أو راقصة، أو امرأة رأيتها في الشارع. أعتز بقدرتي على الانتصاب، حتى بعد أن تتحقق الرجفة.

لاحظت أني أعاني احتدام الرغبة وقت الظهيرة، عقب تناول الغداء. يرافق ميلي إلى استرخاء القيلولة ميل مماثل إلى العناق الجنسي. تعرف إجلال الموعد، تشي كلماتها وتصرفاتها بالموافقة.

لم أحاول مناقشة الأمر، ولا الصلة بين همود الجسد وفورانه.

تجولت عيناي بين وجهها وصدرها وبطنها، استقرتا بين ساقيها. ما أراه يصدني عن التفكير في لمسها.

كيف أضاجعها؟

لم تزايل الابتسامة الداعية شفتيها.

– ألن تخلعي؟

وأشرت إلى بلوزتها.

عقدت ما بين حاجبيها: ما تريده تحت الجوبة.

قلت في صوت ذاهل: لسنا حيوانين، هناك أشياء أخرى.

وهي ترفع يديها كالمستسلمة: افعل ما تحبه.

مررت بيدين تعانيان الارتباك، تعبِّران عما أعانيه في داخلي، على ما لامسته من جسدها، عنقها، صدرها، بطنها، رِدفيها. احتويت كعب قدمها براحة مترفقة، ملت على الأصابع، قبلتها إصبعًا إصبعًا وأنا مغمض العينين. ضمت ساقيها، فتوقفت. ضربت صدري بقبضة يد متخاذلة.

زاد هياجي بما لم أتصوره في نفسي، اجتذبتها بعنف، أحطتها بذراعين أرعشهما الانفعال. أخطأت شفتاي المشتعلتان شفتيها، جاستا في الجبهة والعينين والأنف والفم، حتى الأذنين امتصصتهما بنهم.

لا أعرف كيف ألقيت نفسي فوقها، كأني استكنت لما عجزت عن مقاومته، حاولت — بركبتي — أن أباعد ما بين ساقيها، تملصت لتدفعني عنها، خمشتني بأظافر يديها، دفعتني بقدميها الحافيتين. دفعتها على السرير، وارتميت فوقها. تملصت من ذراعي. قاومت بما لم أكن أتصوره.

لم أواجه عمري هذه المهانة، عمَّق من تأثيرها أنها صدرت عن أحمد أنيس، هو الذي دبر توريطي في هذا الموقف.

طالت أوقات تعبير أحمد أنيس عن هذه المشاعر، فظلت في داخلي، وإن أخفقت في التعبير عنها، ذوت، تفتتت، تلاشت. داهمني إحساس بالبواخ، وأن ما أفعله مجرد تمثيلية سخيفة، طرفها الثاني يرفض المشاركة.

قلت، مدفوعًا بجرأة لم أعهدها في نفسي: هل تثقين أنك امرأة؟

وهي تمضغ ما لم أتبينه في فمها: مثلما تثق أنك رجل!

أبعدتها عني بيد غاضبة. ناديت على أحمد أنيس. أعرف أنه يقف خارج الحجرة، لا يترك موضعه، حتى ينفتح الباب.

تبدل الحال في زيارتها التالية.

ترتدي بنطلونًا من الجينز. شغلني السؤال وأنا أتأمله على ردفيها: كيف استطاعت ارتداءه؟

نترت الحذاء من قدميها. رقصت بكل جسدها، تأوَّدَت، تثنَّت، تمايلت، طارت في الهواء، ملأت الحجرة بذراعيها، وساقيها، وصدرها، ورقصاتها المجنونة، وما أسعفها به ذهنها من الأغنيات.

تأملتها وهي تخلع ثيابها، قطعة قطعة، وتدور أمامي. أكتفي بتأملها، بالتحديق فيها، ملاحظة أصابعها وهي تنزع ملابسها، لم يعد إلا قميص نوم من الساتان الأسود، يشف عن جسدها.

قلبت حقيبتها: بطاقة شخصية، زجاجة عطر، علبة كريم مستديرة، قلم شفاه، مفكرة صغيرة، قلم حبر جاف رخيص. أخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها، تأملت وجهها فيها لحظات، وزمت شفتيها، ثم أعادت المرآة إلى داخل الحقيبة.

أطفأت مفتاح النور بيد، واجتذبتها باليد الثانية. احتضنتها بساعدي، وملت بها على السرير. تضع عطرًا يستفزني لعناقها.

قلت مدفوعًا بجرأتي الطارئة: أتمنى أن ترقص فخذاي بين ساقيك!

أثارني تلويها على السرير، مثل السمكة في المِشَنة.

لاحظت السهولة التي جرت بها العَلاقة، كأن المرأة عرَفت ما هو المطلوب منها تمامًا. أزالت، بتصرفات محسوبة — وإن وسمتها بالعفوية — ما قد أعانيه من حرج أو توتر.

ما المعنى الذي أقنعها به أحمد أنيس قبل أن تغلق باب الحجرة؟

تبينت أنها امرأة ذات خبرة، تتظاهر بالاستجابة، وإن شردت في أشياء تشغلها. فطنت إلى قلة خبرتي، جهلي بالكثير مما ينبغي فعله، تعلمت — فيما بعد — ضرورة التهيئة النفسية، قبل أن أبدأ المضاجعة.

قالت وهي تعدل ملابسها: هل يظل الفندق مكانًا للقائنا؟

– ليست مشكلة؟!

وهي تدس قدمها في الحذاء: من هم في مكانتك لهم أكثر من شقة!

لم أصارح أحمد أنيس بما أريده، اكتفيت بالتلميح، فجاءني بعقد الشقة — ثالث يوم — لأوقعه.

ألفت سخونة جسدها، وأن أفسح لها الطريق إلى داخل الشقة، أدير المفتاح في الباب، أتراجع بصدري كي تدخل، تماهيها رائحة عطر لا تبدله.

معظم شاغلي البناية من الأطباء والمهندسين والمحاسبين والمحامين وشركات التجارة الصغيرة.

نصيحة أحمد أنيس أن أبدو في هيئة المنطوي على نفسه، امتثلت لتحذيره بألا أقيم عَلاقة صداقة مع أحد من سكان العمارة. حتى التحية بالكلمات، أو بالمصافحة، أو بالإيماءة، استبدلت بها النظرة المتجهة إلى الأمام، أو الشاردة، رد الفعل أتوقعه، أتمثله، يعقب التحية بطاقة تعارف، دعوة إلى زيارة. ثمة من يعتبر الجيرة هي الصداقة، أسوأ ما فيها الزيارات التي ربما لا يسبقها موعد.

تأتي في موعدها الثابت، الثامنة مساء الثلاثاء كل أسبوع. أتنبه للطَّرَقات الخافتة بأطراف الأظافر، أفتح لها الباب، تهمس: مساء الخير، أتبعها إلى حجرة النوم، هي الثالثة إلى اليسار، تطل من الواجهة على الشارع الرئيس، ومن الجانب على شارع خلفي صغير.

على يمين المدخل دولاب كبير بمساحة الجدار، يقابله — لصق الجدار — سرير، غطته ملاءة مزينة بورود، إلى جانبه تسريحة، تعلوها مرآة بيضاوية، تناثر فوقها أباجورة وقوارير عطر وأمشاط وصندوق مناديل ورقية وأجندة صغيرة، وفي الوسط طاولة مستطيلة يتقابل حولها كرسيا فوتيل.

ألحظ نترها للحذاء بمجرد أن تدخل الحجرة، تسير كالمتقافزة — على قدميها الحافيتين — إلى النافذة المطلة على شارع قصر العيني، تتأكد من إغلاق الستارة المخملية جيدًا، وتطفئ النور. تحل الظلمة تمامًا، في أوقات النهار، كما في أوقات الليل. تعود — بظهرها — إلى جوار الطاولة والكرسيين، بحركة سريعة، تنزع ثوبها، تقذف به إلى الكرسي، أو إلى الأرض.

يذهلني تجردها العفوي من ملابسها، كأنها تؤدي عملًا، تفعل ما تؤمر بفعله.

تدير نفسها فتواجهني.

أشعر أن جسدي قد استيقظ تمامًا، فح بالشهوة، جاوز إرادتي، ومحاولة إسكاته، سيطر على مشاعري ما يشبه الجنون. مددت يدي حول وسطها، اجتذبتها ناحيتي، حتى لامس أنفي شعرها، انثنت ركبتاها، احتضنتها بامتداد خصرها، ظلت واقفة، حاولت أن أميل بشفتي على وجهها لأقبلها، اصطدمت الشفتان بعنقها. دلكت راحتي أصابع قدمها، اعتصرتها، انزلقت من باطن القدم إلى ربلة الساق، مسدتها بيد نشوانة، ضغطت على ساقيها، أزحتهما بما يتيح لي بلوغ أسفل البطن.

أطبقت شفتيها لتكتم الألم، لكنهما انفرجتا باللهاث والألم واللذة.

لم نعد نمهد بكلمات، ولا رقصات، ولا أغنيات، إنما نبدأ العناق مباشرة، تتخلل العناق عبارات لا تتصل باستغراق اللحظة، تتداخل الأسئلة والأجوبة والملاحظات والمعلومات والأسرار التي يشغلني التعرف عليها.

الطريقة التي كانت تحرك بها جسدها، أثارتني، كل ما في جسدها يرقص: رأسها، عيناها، صدرها، بطنها، ساقاها، حتى قدميها كانتا تتنقلان على إيقاع الموسيقى. أهمس بكلمات الغزل، تهمس بالاستجابة.

اجتذبني إليها أنها كانت تجوس في الغابة بخطوات فاهمة، تسبقني وألاحقها، تنبهني إلى ما لم أكن أعرفه، أو ما لم أفطن له.

أذنت لها — بإيماءة — أن تفتح محفظتي، تأخذ ما تريد من النقود.

تمنت — في لحظات مؤانسة — أن تسكن في واحدة من المدن الجديدة: فيلًا من طابقين، أو ثلاثة، تمتد حولها الخضرة، وتطل على حمام سباحة، وتقف أمامها سيارة أحدث طراز.

صحبتها — بإيعاز من أحمد أنيس — إلى الفنادق والكازينوهات والأندية والمطاعم الكبيرة. ركبنا يختي، هو الذي أشرف على بنائه في ورش القزق، في رحلات بحرية إلى خارج البوغاز.

قلت بلهجة متواطئة: في المرة القادمة احرصي على جواز السفر ... هل لديك جواز سفر؟

استعدت ما لقنه لي أحمد أنيس: ربما واصلنا السير إلى بيروت.

شهقت: بيروت؟!

قلت بصوتي كلمات أحمد أنيس: اليخت يصل إلى أبعد ميناء.

لم أضع تصورات حول ما إذا كانت عَلاقتنا الطارئة ستتحول إلى عَلاقة دائمة.

صار وجودها في حياتي — دون أن أتنبه — أمرًا لا غنى عنه.

نظرت في المرآة الصغيرة، وهي تعتذر أنها تعجلت وضع الماكياج. هزت كتفها، فسقطت حمالة القميص إلى ما تحت الصدر، ظهر الثدي متكورًا، تضيف الحلمة البنية إلى حسنه.

لم تعد تخرج ثيابها الداخلية من حقيبة يدها. تركت في الدولاب ما ترتديه في زياراتها التالية.

– إذا لم يكن من المتاح أن أظل في هذه الشقة، فإني أتمنى شقة قريبة من إمبابة ... في الزمالك أو المهندسين.

أضافت في لهجة متصعبة: المواصلات متعبة من إمبابة إلى هنا.

وحمَّلت صوتها رنة سخط: في خدمتك سائق وسيارة ... ليس أمامي إلا سيارات المشروع.

وعبَّرت بضم أصابعها: علبة سردين بشرية!

اختلطت مشاعري، لم أستطع تبين ماذا تريد.

وهي تدس قدمها في الحذاء: لماذا لا تدعوني إلى فندق خمس نجوم؟

استطردت في نبرة تحريضية: الفنادق الكبيرة لا تسأل روادها أين يذهبون.

يثيرني أنها تناقشني في ندية، كأنها تملك السؤال والأخذ والرد والاعتراض، لحظات تتلو عناقي لها، غُنجها وتأوهاتها، امتزاج عرق الجسدين، محاولتها إقناعي أنها تسلمني جسدها بدافع الحب وحده.

اكتفيت بالقول: دعينا نفكر.

لم يكن السؤال شغلني بحيث أعددت الإجابة.

قلص أحمد أنيس ملامحه في استياء: بنت الملعونة!

وكتم ضحكة منفعلة: إنها تريد شقة مستقلة.

وانفرجت شفتاه عن ابتسامة سخرية: إذا اشترينا لها هذه الشقة فلن تكون الرجل الوحيد الذي تستقبله.

– ماذا أقول لها؟

– سأفكر في الأمر بما يرضيك ... واترك النسيان للزمن.

أزمعت التخلص من هذه العَلاقة التي تصغِّرني، وتذلُّني، عَلاقة لا معنى لها إلا أن تحرجني، وتضايقني، وتثيرني.

– ما رأيكِ في الزواج العرفي؟

التمعت عيناها بنظرة توجس: أفضل الزواج على يد المأذون.

– لي — كما تعلمين — زوجة وابن.

– ولي أسرة يهمها أمري.

– لن يعرفوا أمر الزواج.

استطردتُ في نبرة ملاينة: تصرف مؤقت يثبته المأذون — فيما بعد — بعقد شرعي!

– زواجنا لا يتم بغير العقد الشرعي!

ورفعت عينين حذرتين: إذا وافقت على الزواج منك ... هل تقيم معي أو مع ابنك وأمه؟

– حازم كبر، وإجلال لها بيتها وإيرادها الثابت.

– أنا مثل الفريك.

– هل تريدين تطليقها؟

– هذا شأنك!

حين أتأخر في العودة، أفتح الباب برفق، وأترك النور مطفأ حتى لا تصحو إجلال.

قلت لأحمد أنيس: إن احتجت لقضاء الليل بعيدًا عن البيت ... ماذا أقول لإجلال؟

وهو يغمز بعينه: متابعة سير العمل في فروع المؤسسة تحتاج إلى قضاء الليل في المدن الأخرى؟

تنحنحت: ربما سافرت هذا الأسبوع خارج القاهرة.

اكتفت إجلال بنظرة متسائلة.

وأنا أتشاغل بدس الأوراق في الحقيبة الجلدية الصغيرة: مشكلات في ميناء السويس لا بد أن أحلها بنفسي.

ظلت صامتة، وإن لم تفارقها النظرة المتسائلة.

قلت إن عملي يقتضي أن أسافر إلى الإسكندرية مرة كل أسبوع، أتسلم واردات من الدائرة الجمركية.

لم أجد في نظراتها ما يشي بتوجس، أو استرابة، أو ميل للكذب.

لا أدري إن كانت إجلال قد عرَفت بأمر حنان.

قالت وهي تقرأ الجريدة: تقرفني عَلاقة المرأة والرجل التي تقوم على الجنس!

عانيت ارتباكًا، فلم أسأل إن كانت تعلق على خبر في جريدة، أم أنها تلمِّح إلى حكايتي الجديدة؟

٨

أدرت المكيف، ودسست جسدي عاريًا داخل اللحاف، هذه هي الكيفية التي يقضي بها أبطال الأفلام الأمريكية نومهم.

أصحو متأخرًا، أطيل البقاء في السرير، أتباطأ في حلاقة ذقني، والوقوف تحت الدش الساخن، عادة لا أبدلها في صيف ولا شتاء، لا أتعجل تناول الإفطار.

إذا أحسست بالتعب، طلبت فيمتلئ البانيو بالماء والشامبو، إلى قرب الحافة، أتمدد في داخل البانيو، تسري الراحة داخلي، ربما تمددت على الطاولة الخشبية، أسلم جسدي للماء الدافئ، وأصابع التدليك، والخبطات المترفقة بجانب اليدين على الكتفين والظهر والعمود الفقري، والضغطات حول العنق، وفوق الكتفين، أطيل التمدد في الجاكوزي ليذيب الدهن تحت الجلد (دلني أحمد أنيس على إذابة أملاح زهرة الأوركيد في ماء الجاكوزي المعتدل الحرارة)، أشرب الخمر دون أن أبلغ حد الإدمان.

تعلمت ما ينبغي تعلمه: العناية بالبشرة، وبالحمام الساخن، والرشاقة والرياضة اليومية، ولو مجرد المشي على طريق الكورنيش، وانتظام مواعيد تناول الطعام، كيف أتناول الطعام بالشوكة والملعقة والسكين، أسلم أصابعي لعاملة المانيكير والباديكير، تعتني بأظافري، وتزيل الجلد الزائد والميت، أحتفظ بخفوت صوتي، أعرف ما يردده أحمد أنيس أمامي من أسماء مشاهير السياسة والفن والأدب، أحسن التعامل مع المرأة.

أطيل الوقوف أمام المرآة، أتفحص ملامحي جيدًا، ما يحتاج إلى رعاية. أشذِّب شاربي، أستخدم عطرًا هادئ الرائحة، أمسِّد جانبي شعر رأسي. أحرص على العناية بمظهري، لا أهمل حتى المنديل الهرمي في جيب الجاكتة العلوي.

عقب أحمد أنيس على اعترافي بأني أريد أن أقلد ما أشاهده: لا تفعل شيئًا دون أن تبلغني! لا تفعل شيئًا دون أن أوافق عليه!

ملاحظاته لا تنتهي: في ملابسي، وسيري، والمفردات التي أستعملها، في تناولي الطعام، وطريقة الجلوس.

حتى جلساتي الخاصة يسترق السمع إليها من وراء الباب، أو يتظاهر بالحاجة إلى شيء، ليلتقط من الكلام ما يبني عليه.

وضع على الطاولة زجاجة زيت زيتون. ظل صامتًا، ينتظر سؤالي عن المعنى. لم أسأل، واكتفيت بنظرة محايدة.

وشى صوته بخيبة أمل: زيت الزيتون مهم لمن هم في عمرنا.

وعدَّ بأصابعه: يفيد في طراوة البشرة وخفض ضغط الدم وتيبس العظام والسكر وتأخر ظهور التجاعيد ومنع الـ ...

وأدار أصابعه إلى جانب رأسه بما يعكس معنًى سخيفًا.

لم تغادر النظرة المحايدة عيني.

التفت ناحيته في استياء: فقدان الذاكرة أو خرف؟!

بدا عليه ارتباك، تحركت شفتاه يحاول أن ينطق، لكنهما ظلتا مفتوحتين ساكنتين.

حل الصمت بيننا.

افترَّت شفتاه عن ابتسامة محرضة: ملامحك مجهدة ... لا ترهق نفسك ... إن شعرت بالتعب لا تغادر البيت.

تصورت أنه سيدعوني — ذات يوم — إلى البقاء في البيت، يعرض — عبر التليفون — آراءه واقتراحاته، وما اتخذه من قرارات. أبدي ملاحظاتي بالقبول، أو الرفض.

فاجأته بالقول: هل تلتقيان من ورائي؟

أشار إلى نفسه بعصبية: سيادتك ... أنا الذي عرفتك بها.

– منذ ذلك اليوم لم يعد لك صلة بها.

– إذا رأيت ألا ألتقي بها، فهذا ما سأفعله!

كان يطيل الانتظار حتى يرى سيارتي مقبلة. تتوالى كلماته المرحبة من قبل أن ينفتح باب السيارة.

وأنا أتجه ناحية باب المصعد، يسبقني، ويلحق بي رجال الأمن، قال أحمد أنيس: هذا هو المصعد.

التفتُّ ناحية الموضع الذي أشار إليه.

وهو يسبقني إلى المصعد: أعددناه، فلا يستقله سواك.

أطلت تأمل المرايا المحيطة، والنقوش، والإضاءة العالية، والمروحة الصغيرة في زاوية السقف.

أُغلق الباب، فلم يعد سوانا. اتجه بنظراته إلى الأرض وهو يفرُك يديه: لا يصح أن يشاركك المصعد بقية الموظفين!

ربما اطمأن إلى جلسة السعاة أمام مكتبي: اليونيفورم، والذقن الحليقة، وتلبية نداء الجرس.

يضغط على النور الأحمر عند وصوله مكتبي، يعرف الموظفون والزوار أنه يعرض عليَّ أوراقًا يجب ألا يراها أحد.

أعرف أن النور الأحمر لا يعني الانشغال بأمر يتصل بالعمل، هو — في الأغلب — انشغال بما لا يتصل بالعمل.

يثيرني أني تحولت إلى تابع للرجل الذي اخترته ليكون تابعي.

أحنى رأسه بابتسامة صغيرة: ينقصنا دخول البرلمان؟

– من نحن؟

– سعادتكم.

– لم تشغلني هذه المسألة.

– يجب أن تشغلنا.

وعد بأصابعه: النفوذ الأوسع ... المكانة الاجتماعية الأكبر ... الحصانة ... وغيرها كثير.

أغمضت عيني، وشردت في الفراغ: دعني أفكر.

وقاومت الحيرة: أنت تضعني في قلب معمعة لم أُعِد نفسي لها.

وهو يفرك يديه: النصر لنا بإذن الله.

دنا بوجهه، وأحاط فمه براحة يده: جلست هذا الصباح في كافيه كوستا إلى رجل ماضيه طويل مع الانتخابات.

وعلا صوته متباهيًا: هو الذي أسقط مرشح السعديين في انتخابات ١٩٥٠م.

– لم أكن وُلدت بعد.

– الرجل في السبعين، عاصر الانتخابات منذ حكومة حزب الشعب.

– هل يبدل الصناديق إن لم تكن لصالحي؟

– بل سيضمن وضع البطاقات المؤيدة لنا داخل الصناديق.

أردف في تأكيد: هذه مهمته.

سحب ورقًا من أمامه. كتب أرقامًا، جمَع وطرَح وضرَب وقسَم، رفع رأسه، ثم مال على الورق يقرأ ما كتب: عدد العاملين في الهيئة حوالَي ٢٠ ألف عامل. سنضع لكل عامل مرتب شهر قبل الانتخابات، ومرتب شهر بعد الفوز، مكافأة يسيل لها أي لعاب.

وأنا ألعق شفتي: مبلغ كبير!

أكسب صوته نبرة استعراضية: من حق رئيس العمل أن يكافئ مرءوسيه.

بدت أعوام الهيئة كأنها يوم واحد متصل، لا يستوقفني يوم محدد، ولا حادثة بالذات، لا تستوقفني حتى ملامح من كانوا معي إلا كأطياف متباعدة.

لا أعرف إلا القليل مما يفعله، حتى ما يعد له يحرص على إخفائه.

تبينت في نفسي عدم القدرة على اتخاذ القرار. أقلب الأمر، أفكر فيما ينبغي فعله، تطول الساعات دون أن أصل إلى نتيجة ما.

هذه المشكلات التافهة، إذا لم يوجد من يعالجها، فإنها تتحول إلى مشكلات يصعب حلها. أنت لم تحجز تذكرة الطائرة في موعدها، كيف تسافر؟ لم تفطن إلى موعد استشارة الطبيب، هل تطمئن إلى حالتك المرضية؟ سهوت عن موعد مناقصة أو مزايدة، هل ينتظرنا المزايدون؟

مشكلات كثيرة، تحتاج إلى من يُعنَى بها، وربما تبدو تافهة.

يصبر على إخفاقاتي المتوالية، وأسئلتي، وهو يعلِّمني — دون أن يوضح ما يفعل — كيف أدير الحوار، وكيف أتلقى الأسئلة، وأجيب عليها، حتى أطيل، أو أوجز، أو أصمت إن لم يكن ثمة ما يقال.

لم أكن أتصل بشخصٍ ما، جهةٍ ما، إلا إذا مهد لاتصالي بكلمات تضعني في الهيبة اللازمة.

إحساس يشبه اللذة، يتابع من خلاله الصراع والتقاتل بين رؤساء الإدارات، دون أن يشير بتدخلي. لا شأن لي بمن يسقط، أو يخسر حتى نفسه. يُدين نشوء الخلاف وإن التذَّ باستمراره.

قلت: ماذا تعني بقولك: اختلافهم رحمة؟!

– عندما يختلفون تضمن ولاءهم جميعًا!

ولاح على شفتيه طيف ابتسامة: يختلفون فيختفي التآمر.

– لكنهم زملاؤك.

– وهم متآمرون، ويجب إيقاف تآمرهم!

ثم وهو يهرش مؤخرة رأسه: هناك شعارات موضعها الكتب، الحياة المَعيشة شيء آخر!

يدخل حجرة المكتب في اللحظة التي أهم فيها بالضغط على الديكتافون، كأنه يحدُس — على البعد — متى أريد أن أكلمه.

لا يأذن لأحد بدخول مكتبي إلا إذا قرأ المذكرة التي سيعرضها جيدًا. يدون ملاحظات، قبل أن يتيح لقائي، إن داخله التوجس لحق بالزائر، يقف بحيث أتابع حركة شفتيه بالكلمات الصامتة، الإشارات، الإيماءات. تقاطع كلماتي، تبدل الخطأ الذي تصوره بكلمات أخرى تهب المعنى الذي يريده.

تمتد يده إلى الديكتافون — لا أستعمله — يطلب من السكرتيرة إيناس مهنا ألا تأذن لأحد بالدخول، يهمل نظراتي المتحيرة، المتسائلة عن معنى التصرف.

لم أعد أفهم حقيقة مشاعري؟ لماذا أقبل، ولماذا أرفض؟

حتى طلبه من إيناس مهنا موظفة السكرتارية أن تسلمه البوستة، لم أناقشه، ولعلي ارتحت إلى ما فعل، تتحرك في الغرفة، يبعث ردفاها النيران في داخلي، أحاول كتمها، أتظاهر باللامبالاة، أتكلم فيما يفد إلى خاطري، لا تفكير، لا محاولة حتى لاجتذابها، الارتباك يفرض سيطرته تمامًا.

عرَفت خطواتُه طريقَها بين القاعات والرَّدهات والطوابق والغرف، لا يستوقفه سؤال ولا نظرة محدقة. أَلِف المكان فهو يتحرك بعفوية واضحة.

أحمد أنيس أول من أستقبله من موظفي الشركة، آخر من يودعني قبل أن تقلني السيارة إلى البيت.

أحمد أنيس يدير كل شيء، يأمر، يراجع قرارات الترقية والمنح والخصم والإجازات، لا يبدي ميلًا فأراجعه، أضيق بتصرفاته، لكنني عاجز عن الفعل.

قال إنه يعتز بأنه قد جعل حياته كلها للعمل، لا يذكر أنه قد حصل على إجازة إلا إذا أخضعه المرض، ثم شكا من أن إدارة المؤسسة ترفض أن تحتسب له الشهادة العالية التي حصل عليها أثناء الخدمة.

صارت أوامره أكثر نفاذًا من تعليماتي وأوامري.

يحرص على حضور المؤتمرات. إذا لم يكن في المؤتمر ما يغري بالمشاركة، ففي الحقيبة التي يحصل عليها فائدة.

يشارك — نيابة عني — في حفلات عقد القران والزِّفاف وأعياد الميلاد، وفي الجنازات والمآتم.

همس بقدرتي في أن أحصل على أية موظفة يريدها. النساء اللائي يعملن في المؤسسة لا يترقين إلا إذا مررن على مكتبي، ثم على أماكن تخصني، أحددها.

قال أحمد أنيس: صدقني ... الخطأ والخطيئة هما الأصل. وقال: إذا كان الهواء فاسدًا، فنحن لا نملك إلا أن نستنشقه أو نموت! وقال: من الصعب على ضمير المرء أن يظل صاحيًا في وقتٍ ماتت فيه الضمائر! وقال: علينا أن ننظر إلى الإنسان الخيِّر باعتباره أمنية، وقال: اللؤلؤة لا تساوي شيئًا إذا ظلت حبيسة صَدَفة في قاع البحر! وقال: المهم حجم الثروة وليس كيف تحققت!

حين أومأت إلى حنان والخيانة الزوجية والتوقعات، قال أحمد أنيس: إن الخيانة الزوجية ليست تصرفًا طارئًا، ولا هو من التصرفات النادرة، ولعلها بدأت مع فكرة الزواج نفسها، البواعث متعددة، تبدأ بالفضول وتنتهي بالملل.

– هل تتصور أن المدام ترضى عن الأيام المتشابهة؟

– ماذا تقصد؟

– المدام فاضلة ومحترمة ... تصوري أنها تدرك المعاني السلبية في نفوسنا نحن الرجال!

خمن من صمتي استجابتي لقوله، أضاف في لهجة متحمسة: اختصر فاديم كل عَلاقات كازانوفا ودون جوان في زواجه من أجمل ثلاث نساء: كاترين دينيف وجين فوندا وبريجيت باردو.

واتسعت الابتسامة في وجهه: ليتنا نأخذ من الشيعة زواج المتعة!

واغتصب ابتسامة: المرأة — كما تعرف — أشد انضباطًا من الرجل.

فطنت إلى أنه لا يجد الكلمات التي يريد أن يعبر بها.

أردف في ابتسامته الشاحبة: الوفاء طبع في المرأة، أما الرجل فيأمل في عفوها!

واسترق ناحيتي نظرة متفحصة، ربما ليمتحن أثر كلماته.

مرة وحيدة، ثرت عليه، وطردته. كنت قد صحبت إجلال إلى حفل زِفاف في الدقي. قال لي أحمد أنيس في نبرة توبيخ: لا تدخل مطعمًا فاخرًا وفي يدك ساندوتش!

قفزت صورته وهو يظهر التهيب، ويده ممدودة بلفافة من ورق الصحف: فضلة خيركم ... فطير مشلتت من البلد!

هو يعرف السومون فيميه والكافيار والاستاكوزا والباتون ساليه والكرواسون والساليزون. تناسى البتاو والعيش المرحرح والعيش الشمسي.

هل يعرف أني أخافه، وأكرهه؟

حازم، كيف أبدو أمامه؟ كيف ينظر لي؟

لاحظت في وجهه طلوع شارب، ولاحظت تغيرًا في صوته، داخلته بحة. كل ما فعلته كان من أجله، لكي يصبح في الحياة التي هو عليها الآن.

أين الصواب، وأين الخطأ؟

قال أحمد أنيس: أنت تفعل ذلك من أجله؟

دون أن أرفع رأسي عن الأوراق: أعرف ... لكن سيعرف ذلك؟ هل يحترم أباه!

– أولادنا يعرفون أن كل ما نفعله من أجلهم؟

– حتى الخطأ؟!

قال أحمد أنيس: الخطأ نسبي ... ما تراه خطأ قد يراه غيرك عين الصواب!

٩

شيء يتحرك في داخلي، يدفعني إلى العنف في الكلمات والتصرفات، أحاول كتم الباعث، فلا أستطيع، لا أعرف لماذا، ولا كيف، أجاوز مشاعري السلبية. أعرف أن ما أفعله هو خطأ، وأنه من العيب أن يظل ذلك الخطأ، ليس ثمة ما يدعو إلى العيب والعنف والقسوة.

أعاني شعورًا بأن من حولي يتحينون الفرص للانقضاض، حتى هؤلاء الذين زرعتهم، وتعهدتهم بالرعاية، وبدأت أشجارهم في طرح الثمار.

– كل ما وضعوه على مائدتي من هذه الثمار كان مسمومًا.

وتنهدت: لو لم أنتبه ربما فارقت الحياة من زمن!

أفتش حجرة النوم — قبل أن أنام — جيدًا أبحث عن عدسة، جهاز تسجيل، أو تنصت، ما يدعو إلى التوجس.

صحوت على موجة هائلة طوتني في داخلها، لا أذكر ما سبق اللحظة، ولا ماذا كان الكابوس، وإن ظللت على السرير لأسترد نفسي.

أمليت على إجلال رقم تليفون أحمد أنيس.

علا حاجباها بالدهشة: لم يعد مدير مكتبك.

فوَّتُّ الملاحظة. طلبت أن تسأل ما إذا كانت هناك أوراق مهمة تحتاج إلى التوقيع.

مازلت الرئيس الذي يسأل، ويناقش، ويهب النصيحة، ويأمر.

تعاملي — بدلًا من الحرس الشخصي— مع البوابين ومنادي السيارات وسائس الجراج وبائع الصحف، من لم أتعامل معهم من قبل، البديل لدور أحمد أنيس في حياتي، أحرص فلا أتباسط معهم مثلما كنت أفعل مع أحمد أنيس.

طلبت من إجلال — وأذان الفجر يُرفع من المسجد القريب — أن ترتدي أجمل ما لديها من ثياب.

قلت في نبرة تذكيرية: هل تذكرين الوزير ماجد إبراهيم؟

– ماله؟

– دعوته على الغداء.

– انقطعت صلتكما منذ ترك الوزارة.

– عرفت أنه سيعود إليها.

وأومأتُ لتوضيح المعنى: لي معه مصالح كثيرة.

كانت قد استغنت عن الخادمة والطباخ: نحن أولى بنقودنا.

تنبهت إلى وقع أقدام فوق سطح الفيلَّا. امتدت يدي — بتلقائية — إلى المسدس فوق الكومودينو المجاور. صوبته ناحية الباب المغلق. درت به ناحية النافذة المواربة.

هل نسيت إغلاقها؟

تنقلت حركتي بين الباب والنافذة. غاب وقع الأقدام، وأرهقني الانفعال والقلق والتوتر، فنمت.

قمت، لأطلب — وأنا أحاول التثبت مما أرى — استدعاء أحمد أنيس، أُملي عليه احتجاجًا إلى الوزير: لماذا يهمل استشارتي في المشكلات المهمة؟!

لمحت في عينيها آثار دمع.

– لماذا؟

أدركتُ أن توجيهاتي تثيرها، هذا ما اعتاده الموظفون في المؤسسة.

– أخاف عليك من الكوابيس ... لا تكاد تفارقك.

– أنا؟!

– صراخك لا يهدأ حتى أهزك فتنتبه!

قالت — وهي تنهنه — إني أعاني صعوبة في تكييف نفسي مع حقيقة الأشياء، ما كان زمني مضى. حل — بدلًا منه — زمن أحمد أنيس.

لم تكن تعرف كثيرًا ظروف عملي، لكنها أدركت أن وضع زوجها لم يعد كما كان. طرأ تغيرٌ ما ملموسٌ على عملي الوظيفي، وكانت تتابع ما يحدث بقلة حيلة.

احتوت كفي بين راحتيها: ثق أن الله سينصرك.

– لا شأن لله بهذه المعارك السخيفة، هي مقصورة على الشيطان!

وضربت فخذي بأطراف أصابعي: لو أنه يمتلك عافية، فلن يتأخر في تأجير عافيته.

وراحت عيناي في الفراغ: المومسة لا تقتصر على النساء!

أصحو — في عز الليل — لأن الأرق يمنعني من النوم، ربما طلبت ورقة وقلمًا، أملي عليها رسائل، أو ملاحظات، أو ذكريات، أرى أنها مهمة. ألاحظ أني نسيتها على موضعها فوق الكومودينو المجاور للسرير.

لاحظت — في جلستي على رصيف قهوة ريش — شابًّا في حوالَي الخامسة والثلاثين، يميل على جاره — في سن مقاربة — يُسِر له ما يضحكه، ونظراتهما تتجه ناحيتي.

هل يتحدثان عني؟ هل يشاركان في التآمر ضدي؟

استعدت موقفًا مماثلًا بين رجلين في سن متقدمة، كانا يجلسان لصق نافذة جروبي المطلة على شارع قصر النيل. توقفت يد أحدهما على يد الآخر، سكتا عن الحديث، واتجها إلي بأعين متسعة، تنطق بشعور المفاجأة.

طلبت الكهربائي أول شارع فريد سميكة. راقبته وهو يضع مكبر الصوت على جدار الشرفة المطلة على شارع عبد الحميد بدوي. صحت، بمجرد انصراف الرجل — في مكبر الصوت — أنبه الناس إلى أفعال أحمد أنيس: أحمد أنيس قتلني دون نقطة دم واحدة.

أهملت النظرات المشفقة في عيني إجلال، وما يشبه الصراخ المكتوم على ملامح حازم.

تمنيت لو أن أحمد أنيس رد على كلماتي في مكبر صوت آخر، سأفضحه، أكشف للناس من هو، كيف التقطته من القاع، ودفعت به إلى حيث هو الآن.

إذا كان قد حاول التناسي، فإن الوقائع يصعب نسيانها، أنا ولي نعمته!

حملق بشفة متدلية: هل تتصور أني أخونك؟

وخبط على كتفه بنفسه: لحم أكتافي من خيرك!

يكذب كما يتنفس.

قتل الظاهر بيبرس قائده قطز، فجعله الناس بطلًا شعبيًّا، ونسي الناس ما لقيه علي بك الكبير على يد تابعه محمد أبو الذهب، فبنوا لأبي الذهب جامعًا هائلًا.

هل وصلت نهاية عالمي؟ هل انتهى عالم رضا شهبون؟

وسائلي إلى الناس كثيرة، أوضح وأشرح وأفضح، هذا هو أحمد أنيس الذي ائتمنته فخانني. ثمة الإذاعة والتليفزيون والقنوات الفضائية والصحف والمنشورات التي توزع باليد والملصقات واللافتات المعلقة على مفترق الطرق.

لن أستسلم بسهولة، الحياة معركة، أكسب جولات، وأخسر جولات، المهم أن أنتصر في النهاية.

المثل يتحدث عن الذي يضحك أخيرًا.

١٠

توقعت — رغبة في إذلالي — أن تؤخرني السكرتيرة قبل أن يأذن لي بدخول مكتبه، لكن السكرتيرة عادت من الداخل في ثوان، وأشارت إلى الباب المفتوح.

عدلت عن فكرة أن يكون حديثي له عبر التليفون. قد تعفيني المكالمة التليفونية من المواجهة.

ضايقتني الملاحظة: لا يوجد أحد لكل العصور!

ونقر بطرف القلم على المكتب: أنت تصر على الظهور في التليفزيون رغم انتهاء الإرسال!

تأملت المعنى فأثارني: أنت تبتزني!

قال أحمد أنيس: من يبتز من؟!

ونقر بقلمه على المكتب: أقرأ ما تنشره ضدي!

– تراني صحفيًّا؟

أهمل السؤال: لا صحف المعارضة ولا المستقلة ستفيدك!

بدا كأن دماءه تصاعدت إلى وجهه: كراستي بيضاء ... لكنني أعرف عنك كل شيء!

وداخلت صوته ارتعاشة واضحة: الابتزاز يأتي بالاختلاق!

واتسعت عيناه بالغضب: أنت لا تملك إسكاتي!

ولوح بإصبعه في وجهي: لكنني آمرك بالسكوت!

توالت اتهاماته بأني كنت أسخِّر الآخرين لأهدافي، وأنسب ما يحققونه إلى نفسي. هذا هو التعبير الذي اختاره. ضغط على الكلمات وهو يتحدث عن الأنانية والسطو.

لو أني كنت أعرف العدوانية في داخله، كنت أستعد للمواجهة، أدافع عن نفسي. لم يكن في ملامحه ما يشي بعدوانية ولا تآمر، هو مجرد تابع، يتلقى الأوامر، يشغله تلبيتها.

ما أعرفه من حياته لم يكن هو كل ما في تلك الحياة. ثمة فجوات وظلال ومناطق منسية لم يُتَح لي أن أتعرف إليها. الهاجس — الذي ربما لم أدركه جيدًا — جعل حدودًا للعَلاقة، لا تتخطاها.

لم أسأله عن نفسه، طبيعتي ألا أسأل، ابتلع أحمد أنيس ما في داخلي من ميل إلى السؤال والحوار والأخذ والرد.

التقطت انفصال أمه عن أبيه، حين استأذن في زيارة أمه المريضة: خذ سيارة من الجراج.

– النقل العام تصل كفر العُلو.

وأضفى على صوته رنة حزن: الحاجَّة تقيم هناك.

حدثني — في يوم تالٍ — عن زيارته لأبيه في منوف. أقعد المرض العجوز فلا يقوى على ترك المدينة.

سألت بعفوية: أليس لك إخوة؟

– ثلاث بنات ... الكبرى متزوجة ... واثنتان مع الحاجة.

قال إنه يعتز بأنه قد جعل حياته كلها للعمل، لا يذكر أنه قد حصل على إجازة إلا إذا أخضعه المرض، ثم شكا من أن إدارة المؤسسة ترفض أن تحتسب له الشهادة العالية التي حصل عليها أثناء الخدمة.

أهملت التقارير التي ذكرت عمله في تقسيم الأراضي، وبيعها، وفي الصفقات، والمزايدات، والمناقصات، والعقود، والسندات، والحصص، والأسهم، والشقق، والأراضي، والودائع، والأرقام، وفروق العملة، والسمسرة، والمقاولات، والمضاربة في البورصة، والتوكيلات التجارية.

صار — بما في حوزته من معلومات — هو الأقوى، أخشاه، أتوقع تآمره وغدره.

الكلب!

أَلِفتُ نُباحه ضد الآخرين، هذه المرة نباحه ضدي، لم يكتف بالنباح، لكنه عضني أيضًا.

زال الكرسي، فلا أهمية لشيء، لا توقعات بردود أفعال.

تكررت نصيحته أن أضع مسافة بيني وبين الآخرين. يؤلمني أنه وضع مسافة النصيحة بيني وبينه، بيت الشعر القديم يتحدث عن الذي تعلم الرماية، وكان رَميُ معلمه أولَ ما أقدَم عليه.

هل هذه محاولة لقتلي، فلا أصبح أمثل له ذكرى ينبغي محوها؟!

لم أتصور أن ذلك الرجل الذي له مظهر القط الوديع، سيتحول إلى كلب أصابه السعار، هو لا يفرق في أذية كل من يمرون في حياته. الستر لم يعد مطلبًا في ذاته، يشغله الفيلَّا المستقلة، السيارة، الحساب في البنك، العز والمكانة الاجتماعية.

عرَفت أنه لا يريد الرد على مكالماتي. يقرأ الرقم على لوحة تليفونه، فلا يرد، ألجأ إلى تليفون السكرتارية، أتلقى الإجابة التي كنت أتوقعها: لديه اجتماع، هذا ما كان يوصي به السكرتارية للرد على المكالمات التي تصلني.

جاء صوته حادًّا: تعال!

واجهني بنظرة غاضبة: ماذا تريد؟

اختنقت الكلمات في حلقي: لماذا وشيت بي؟

في لهجة متخابثة: هل فعلت ما يستحق الوشاية؟

وهز رأسه في فهم: أوافقك على أن الحياة أخذ وعطاء.

وواجهني بنظرة متسائلة: ماذا تملك لتعطيه؟!

وتقلصت ملامحه بالتأثر: لو أني انشغلت بالالتفات إلى نباح أي كلب، فلن أجد وقتًا لعملي.

استطرد في تأثره: مادام الفعل يقتصر على النباح، فلا بأس!

جاهدت لإظهار تماسكي، والرد عليه بما يستحقه، لكن صوته علا بلهجة مستهزئة: طالت قعدتك على الكرسي، صارت له رائحة!

أضاف في لهجة باترة: نحن في زمن بقاء الأنسب، والأنسب هو الأقوى.

ضغط على الديكتافون: سأخرج الآن، أبلغوا السائق.

عرفت أنه ينهي المقابلة.

قال وهو يمد يده بالمصافحة: لم تعد بركات الأولياء تكفي للحصول على ما نتمناه!

لاحظت توتر صوته بالعصبية: الطريق المستقيمة ليست — كما يقال — أقصر الطرق، الطرق الحقيقية قد يكون لها منحنيات.

وثبت على شفتيه بسمة استخفاف: على البر عوام!

ولوى شفتيه مستهزئًا: البحر يشغى بالمخلوقات المفترسة، وأنت لا تحسن السباحة!

وتعمد تجويف صوته: أعرف أني أرتكب أخطاء كثيرة، لكنني أثق في قدرتي على التصرف!

وسرت في صوته حشرجة: تصر أن تعيش على جهد الآخرين.

وأنا أغالب غضبي: لماذا تتكلم بهذه اللهجة؟

وضربت صدري بقبضتي: نسيت أني رئيسك؟

أطلق ضحكة متكلفة: ما أعرفه أني أنا رئيس الهيئة.

اختنق صوتي بالغضب: أنا صنعتك.

واستطردت في نبرة مهددة: وأنا سأدمرك!

كسا القلق جبهته، فتكرمشت.

– إذا عدت إلى الكتابة عن الهيئة، فسألجأ إلى نشر إعلان ينفي صلتك بالهيئة، ويحذر من التعامل معك.

أعرف أن أحمد أنيس نقل إلى زوجته وأولاده كل ما يملكه من عقارات ومحال وأموال مودعة في البنوك.

تناهى صوته وأنا أغلق ورائي باب المكتب: ابحث لنفسك عن حياة أخرى.

تعثرت بالارتباك. سقطت النظارة الشمسية من فوق أنفي، تلفت — بتلقائية — حولي، كأني أنتظر من يسبقني في التقاطها، ويعيدها لي. لم يتحرك الموظفون ولا السعاة المتناثرون في الصالة الواسعة. انحنيت، فالتقطت النظارة.

نظرت ناحية الباب المغلق، أتصوره يلاحقني: متى تتعلم إنجاز أعمالك بنفسك؟

دسست النظارة في جيب الجاكتة العلوي، واتجهت ناحية المصعد.

أحمد أنيس حشرة لا تكتفي باللدغ، لكنها تفرغ في البشرة سمها القاتل.

لكي أتقي أذاه، أفر من حصار مؤامراته، فإن ما يجب عليَّ أن أفعله هو أن أبتعد تمامًا، أتنحى عن طريقه، لا أتردد عليه، أحذف اسمه من قائمتي الهاتفية، أتناساه حتى أنساه، ذلك ما أتوقع أن يحدث من جانبه، ينتهي الأمر، لكن القوة التي لا أتبينها تسوقني إليه.

١١

لم أعرف على وجه التحديد ما يشغلني، فأسعى لتحقيقه، أليس مما يدعو الزوجة — قد لا تكون إجلال — إلى التساؤل، وربما إلى خيبة الأمل، أن الزوج لا تجاوز نظراته محيطها الجسدي، هو رجل، فلماذا لا يتصرف تصرفات الرجال؟ لماذا لا يتلفت، ويحدق، ويحاول الغواية، ويستجيب لها، ويحتفظ بالأسرار الشخصية، يحاذر أن تعرفها زوجته؟

يؤلمني انسحاب الرغبة من جسدي قبل الفعل، في اللحظة التي يكون كل منا قد بلغ ذروة توتره. يحدث الأمر فجأة، دون بواعث من أي نوع، أشد ما يؤلمني نظرة الإشفاق التي تلوح في عينيها.

لاحظت ارتخاء ذكورتي عند استيقاظي من النوم. لم أعد أنتصب، فأدركت أن القدرة تُعْوِزني.

كثر ترددي على شارع الأزهر والشوارع المتفرعة، أبحث عما يفيد الباه، ما أعانيه عارض، وإن توالت الأيام دون أن تسعفني قدراتي.

أرجعت الأمر إلى تعب أيام العمل. لما أخفقت إجلال في طمأنتي، قلت إنها تأثيرات أدوية الحساسية التي وصفها لي الطبيب.

طال الأمر، فساورني قلق. لاحظتْ إجلال ميل تصرفاتي إلى العصبية والنرفزة.

أشار الطبيب بدواء مهدئ، وفيتامين في الصباح، وبالامتناع عن تعاطي المشروبات الباردة والساخنة، عدا ثلاثة أكواب شاي طيلة النهار.

تسللت إلى ذهني — لا أدري متى؟ ولا لماذا؟ — فكرة العجز الجنسي. أتصور — عقب كل لقاء — أن هذه هي العَلاقة الأخيرة، ربما انتابتني الهواجس، حتى من قبل أن تنشأ العَلاقة، أخشى أن تظل على حدود الملامسة التي ما تلبث أن تبوخ.

تغيظني كراهيتها الزائدة للجنس، ترفض كل ما يتصل به، حتى الكلمات الموحية ترفضها، تبدل الكلام، تديره إلى وجهة أخرى.

جسدها ساكن في حضني، لا صوت ولا حركة. أحاول، لا أجد استجابة من أي نوع. لا أستشعر الحرارة، ولا حتى الدفء، في عناقها.

تظل ساكنة، مستسلمة، لا مبالية، ما أريده أفعله، فلا تبذل من ناحيتها أي شيء، لا تظهر تجاوبًا، ولا تحاول المجاراة، كأنها — في رقدتها الساكنة — قد رضخت لما تفرضه الظروف. نهاية استجابتها حين ترفع ذراعيها، لأعري صدرها، يظل جسدها مستسلمًا، وأنا أسحب قميص النوم من ساقيها. أتوقع، أتمنى، استجابتها في كل ما تصل إليه شفتاي من جسدها، وبتحسس راحتي، لا تفلتان موضعًا. يظل فمها مغلقًا، وعيناها متجهتان إلى الفراغ.

حنان تغمض عينيها، تستغرق في اللذة. أما هذه المرأة، فهي تسلم جسدها، كأنه لا يخصها. استجابتها متلاشية، عيناها مفتوحتان على اتساعهما، لا تطرفان، تصيبني بالارتباك.

آخر ليلة، تلامسنا كزوجين. واتتني قوة في عناقنا لم أعهدها في الفترة الماضية. حدَستُ أن الشمعة تهَبُ أكبر مساحة ضوء قبل أن يتلاشى الضوء تمامًا.

روت لي حنان ما أذهلها: دعاها أحمد أنيس إلى الجلوس على الكرسي المواجه لمكتبه، مكتبي. شابَ صوتَه تذللٌ وهو يطلب أن تكشف عن فخذيها، اتسع تقلُّص ملامحها المندهشة، ويده تفك أزرار البنطلون، وتخرج بالانتصاب، تلاحقت يده باللذة المحمومة، حتى تحققت الرجفة. ترافَقَ مدُّ يده إلى علبة المناديل الورقية، بإيماءة رأسه، أن تعيد إسدال الفستان على فخذيها.

أدركت أني في حاجة إلى إجلال أشد من أي وقت. ليست مجرد زوجة، لكنها صديقة أبوح لها بما أعانيه، تجيد الإنصات، وتبدي المشورة. ذلك هو الإطار الذي وضعت فيه عَلاقتنا. تمنيت أن تستمر فيه العَلاقة بيني وبينها.

– مضى على زواجنا أعوام طويلة، أخلص فيها كل منا للآخر بما يجعل من الشك مستحيلًا.

قالت دون أن يستوقفها المعنى: لم نعد زوجًا وزوجة، نحن أسرة، زوجان وأبناء.

وأنا أتحسس الكلمات: هل تجدين في إخلاصي لعَلاقتنا الزوجية شيئًا عاديًّا؟ ألا ترين أن المرء — حتى لو كان زوجًا صالحًا — يجب أن ينظر إلى النساء، يُعجَب بمن تستهويه، حتى لو كانت زوجته جميلة الجميلات.

وهي تدفع شعرها خلف رأسها: إذا أردت إجابة ترضي ما بنفسك، فلا تسألني.

أحسست أنها تركت الباب موارَبًا، كي أنفذ من الانفراجة الضيقة: أرفض الخيانة، لكنني أرفض البلادة أيضًا، سئمت المتاح. من حقك — لا أقول من واجبك — أن تحذري اتجاه نظراتي، ما يلفت انتباهي في الأخريات، يهمني أن تتعرفي إلى ما أجدت إخفاءه خلال عشرتنا الطويلة!

تقلصت ملامحها بخيبة أمل: هل هذا ما تركه أحمد أنيس فيك؟!

هي تعرف أن أحمد أنيس سلب وقتي، كل وقتي، حتى خارج المؤسسة، بصَمتِه، أو في مكالمات التليفون.

رفعت حاجبيها: وهذه العبارات السخيفة في كلامكما.

أحمد أنيس احتواني، امتصني. لم تعد لي قدرة على فعل شيء بدونه، لا أوامر، ولا ملاحظات، ولا أسئلة. كان أحمد أنيس — وحده — يفعل كل شيء، يوجه وينصح ويشير، هو أنا، وأنا هو، هو نحن الاثنان، وقفتي على الهامش لا أجاوزها.

دهمني إحساس بالمرارة: لا شأن لأحمد أنيس بما أفكر فيه أو أفعله ... أحمد أنيس كان مجرد موظف عندي!

فوَّتَت الملاحظة: كان أحمد أنيس في حياتنا ... ورحل.

ورمقتني بإيماءة مستفهمة: لماذا تصر على أن تستدعيه؟!

وبدا الاستياء في نبرة صوتها: أنت تنغص حياتنا بذلك الرجل!

هبطت الفكرة على رأسي في تقاطع الطريق بين شارعي طلعت حرب وقصر النيل. لماذا لا أنسى أحمد أنيس؟

إذا كنت قد أدخلته حياتي لسبب محدد، فإن السبب لم يعد قائمًا. يجب أن أبدل حياتي، كل ما في حياتي من بشر وارتباطات ومواعيد، يغيب أحمد أنيس تمامًا فلا أراه، يخلو البيت إلا مني، تذهب إجلال إلى أمها، فأتأمل ظروفي، وأعيد ترتيبها.

أردت أن أفعل شيئًا، نفعل شيئًا، أكسر رتابة ما يحيط بي من رتابة وملل.

من حق المرء أن يحيا تجارب مثيرة، لا تشغله الملاحظات، ولا الأسئلة، ولا حتى الانتقادات، ما يرى أنه يستحق المغامرة يقدم على فعله.

يلي إغلاق باب حجرة النوم علينا قيام حائط غير مرئي يلغي كل ما كنت أعددته. النظرات التي تومئ وسيلة كل منا للتعبير عن حاجته إلى الآخر. وميض عينيها استجابة لما تلتقطه في نظرتي.

– لا أريد أن أبحث عن واحدة أخرى.

لمحت استجابة في إيماءة رأسها: شجعيني على البقاء في البيت.

بدت الفكرة — حين قلَّبتها في رأسي — مبهجة، ثم باخ — بكلماتها — كل شيء.

أدركت أن ما كان في قبضتي قد أفلت بعيدًا.

أغمضت عينيها كأنها تتأمل الكلمات المناسبة: أنت في حدود الخمسين؟

– لم أبلغ الثامنة والأربعين.

– سن يصبح فيها المرء صديقًا لأبنائه!

فوَّتُّ الملاحظة.

بسطت راحتيها في حيرة: لم أعد أحتمل ... أنت تريد ممرضة، لا زوجة.

– هل شكوت لك مرضًا؟

– المصيبة أنك لا تعرف مرضك!

لاحظت أنها لم تعد هي، معاملتها لي تغيرت، وإن لم أدرك دافع هذا التغير. صارت حساسة بما لم تكن عليه من قبل.

هل الأمر يرتبط بإحالتي إلى المعاش؟ هل أتت محاولاتي لكسب ودها بعكس ما أرجوه؟

بدت لي مخلوقًا آخر غير التي أعرفها، فترات الصمت بيننا تطول، لا أجد ما أتكلم فيه، ربما هي أيضًا لا تجد ما تكلم فيه. ضايقني قولها أني لم أتصور حياتي بعد أن يذهب أحمد أنيس. لماذا أتصور؟ أنا أتيت به، جعلته، يجب أن يظل تابعي، خادمي.

حلت الغربة بيننا، غربة مفاجئة، كأني ألتقيها للمرة الأولى، أو أن أحدنا لا يعرف الآخر، يهمس الصوت، يغلبه الانفعال، تتجه الأعين إلى الناحية المقابلة.

غلفت صوتي بمداهنة: لماذا تبدلت مشاعرك؟ ... أظن أنك ...

هزت يدها مقاطعة: الشفقة هي ما أشعر به ناحيتك، زالت الشفقة فلم يبق سوى الكراهية!

١٢

لا أدري متى بدأت المخيلة في استدعاء حنان، تنبهت إلى ما أعانيه حين انتفضت إجلال من بين ذراعي مستنكرة. كنت قد أدرت التسجيل بصوت حنان، تهمس، تفح، تغنج، بما يثيرني.

ضغطَتْ على زر الأباجورة، إلى جانب السرير، انتفضت مذعورة، تملصت من حضني، اتجهت بنظرة مستغرِبة إلى جهاز التسجيل، فوق الكومودينو.

– أنت مريض!

التسمية قاسية!

لو أنها اتهمتني بالجنون، فالمعنى يشمل تصرفات، أملتها لحظات المضاجعة. لم ترفض حنان وأظهرت السعادة، حين أدرت التسجيل، لحظة اتجاه كل منا إلى الآخر بمعانٍ دالة.

هي لا تعرف حنان، لا تعرف صوتها، لم أحاول مضايقتها، أردت أن أثير صمتها. يؤلمني، يغيظني، صمتها، لا صوت ولا حركة، إلا ما يرافق أدائي، لا أتعمده، مصدره العفوية، تغيب الاستجابة في ملامح وجهها، ردود فعل على أي نحو. أستدعي العبارات الساخنة، واللهاث، والتأوهات، والصرخات المكتومة.

أيقظت في نفسي ما لم أكن تنبهت إليه من قبل. فجرت ينابيع صاخبة، موارة. هي في بالي بقسمات جسدها، وتقاطيعه، وملامح وجهها. أستعيد في ذاكرتي كل ما التقطته، الإيماءات، حمرة الأظافر في تراقص أصابعها، وهي تنتر الحذاء من قدميها، إعادة خصلة الشعر المتهدلة، ضغطة الأسنان على الشفة السفلى، تسوية الرموش والحاجبين، تجفيف صدرها بالمنشفة التي أحاطتها بها، كلمتها المغناة تضيف إلى اشتعال النيران: يا شقي.

لا أتصور أني أحيا دون إجلال، أتمنى العيش مع حنان في الوقت نفسه، أحتاج إليهما، أتخيل — هذا ما أملكه — أنهما يرافقان نومي. أحتضن إجلال بساعديَّ، وأضاجع حنان بالأخيلة المحمومة، والأبخرة التي تكاد تحرقني. يتطاير الشرر من عناقنا، تشتعل النيران، تتفجر البراكين، تزأر وحوش الغابة، تتعالى الموسيقى الصاخبة.

أقسى ما أعانيه حين أعانق إجلال بذراعين متشبثتين، يداخلني شعور أن حنان هي التي أعانقها. تنبهت لصوتها وأنا أخترق زحام سوق التوفيقية، تراجعت نظراتي المتلفتة دون أن أجدها، ترامت ضحكتها الصاخبة في جلستي داخل جروبي، نظرت بتلقائية، بدت الطاولة لصق النافذة المطلة على شارع طلعت حرب خالية، والدنيا ساكنة.

وضعت إجلال العلبة الخضراء على البوفيه: قرأت أن هدايا الزوج الكثيرة معناها الخيانة.

أعدت الكلمة مستنكرًا: الخيانة؟!

لفني ارتباك، أحسست أني نسيت كل ما كنت قد أعددته من كلمات: هداياي خيانة؟!

لم تستجب لمحاولاتي باستمالتها، لم تحاول مجرد النظر ناحيتي.

الصدود هو التصرف الذي تقابل به عناقي.

قمت عنها بملامح غاضبة: أنت تمارسين الجنس كوظيفة!

أضفت لدهشتها المتسائلة: هذا ما ينطق به جمود وجهك!

ورشقتها بنظرتي الغاضبة: أنت الآن كالدواء الذي انتهت صلاحيته!

عَلاقتنا العاطفية لم تعد تمتعني، هي مجرد شريك يؤدي ما تطلبه القواعد.

همست من بين أسناني، أعيب عليها سلبية أدائها في المضاجعة، هي تتمدد تحتي، تترك لي نفسها، لا تتحرك إلا عندما أحركها، لا تتكلم، ولا تصدر صوتًا من أي نوع. شغلتني حيل — ينبغي أن تعرفها — لإيقاظ قدرتي الهامدة.

شاهدت في التليفزيون عمر الحريري وهو ينزع الجورب من ساق صباح في فيلم «الرباط المقدس». أهملت نظرة إجلال المندهشة، لما طلبت منها أن ترتدي جوربًا في ساقيها. قلت إنه يضيف إلى جمال الساقين. لم أناقش — فيما بعد — إهمالها ما طلبته. أستطيع أن أطلب، من حقها أن ترفض. ذكَّرتُها بأن الاتصال الجنسي ليس في اللقاء المباشر وحده، لكنه في اللحظات التي تسبقه، واللحظات التي تتلوه.

أزاحت ساعدي بيدها: من حنان؟

هل ذكرت — دون أن أفطن — اسم حنان؟

اقتحمني الارتباك، قلت ما لا أعرفه ولا أفهمه، أعادني استواء جلستها، ونظرتها الغاضبة، إلى نفسي: اسم موظفة في الهيئة.

نظرت إلى ما لم أتبينه جوارها: أريد أن أكون وحدي.

لم أعد أتردد على حجرة نومها، أستلقي على السرير، وفي رفقتي حنان، صورتها كما أعرفها، أخلو لها في خيالات متداخلة. أحدق في الجسد العاري، أتأمل القسمات والملامح والتعبيرات، تمتد الخيالات إلى آفاق لا نهاية لها، تتناثر في مداها حنان، مبتسمة، جالسة، نائمة، راقصة، تهمس بغُنجها المثير، يمس لسانها شفتيها بإيماءة تحريض في أوضاع أطلبها، أو تختارها، أستعيد تكوين جسدها بتقاطيعه وتفصيلاته وانبعاجاته وانحناءاته، لا أعرف أين تكمن الإثارة؟

حتى أظافر اليدين والقدمين المطلية بلون الدم تثيرني في شرود إغماض العين. يجتاحني الغُنج والفحيح، تتملكني رغبة كالجنون في المغامرة، والبحث عن المثير. أحاول كتم الأبخرة المتصاعدة في داخلي، أعاني عجزًا عن لملمة نفسي المبعثرة.

لفني شعور بأن إجلال تعجز عن تلبية رغباتي، لا تستجيب لمشاعري، لا تدرك حقيقة ما أعانيه. أغمض عيني لما أتبين أني كنت أبحث في وجه إجلال عن ملامح حنان.

تظل الرغبة في داخلي وأنا أضاجعها، يأخذني الشرود إلى حنان، أعانق جسد إجلال، تتحرك السيقان بينما فمي يعتصر شفتي حنان، يسري عناقها بالمتعة في خلايا جسدي، أشعر في احتضاني لها أنها هي التي تحتضنني.

شعرت — في لحظة لم أتوقعها — أن مضاجعتي لإجلال واجب ثقيل، تذكرت قول الرجل في مقهى الكورسال: العَلاقة الحلال تخلو من اللذة. وقال الرجل عن امرأة لا أعرفها: لها شفتان ممتلئتان تغريان بالالتهام.

من حقي أن أعوض ما فاتني، أن أشبع رغبتي، وليس مجرد أداء واجب الزوجية.

ما الذي جذبني في حنان، فلا أستطيع نسيانها؟

غاب المعنى في تأملي، واجتراري ما حدث، لكنه استقر في النشوة التي تستغرقني تمامًا. تأوُّد المشية، تكويرة الردفين، استدارة الكعبين وحمرتهما، همس الكلمات، وتباطؤها. حتى طريقة نزع الثياب والحذاء تضعني فوق صهوة الجنون، أهمل كل شيء عدا الرقصات المحمومة.

أخلو إلى نفسي، تؤنسني حنان بطريقة كلامها، وتصرفاتها، وضحكتها، وتخلل شعرها، ورائحة عطر Joy الذي حرصت عليه منذ استعملته — هدية مني — للمرة

الأولى. أصحو، فأجد حنان ممددة إلى جانبي. النظرة السريعة إلى المكان تعيدني إلى نفسي، وإلى إجلال التي أحاول تبين ما إذا كانت نائمة بالفعل، أم أنها فطنت إلى المعنى.

قادتني حنان إلى المتعة بما لم أعرفه في إجلال، مخيلتي تجتذبها لحظات احتضاني إجلال، أجاوز الصمت السادر، أغرق في طيات أمواج حنان، في ليونة جسدها الطري، أشعر في عناقها بتغلغل اللذة في أعصابي وخلاياي، كأن جسدي يتحول إلى كتلة مشتعلة من النيران.

ما يصعب تفسيره قيَّد العَلاقة بين إجلال وبيني، تلك طبيعة الزواج: زوجان يضمهما بيت إلى نهاية العمر، الحرية المنطلقة عَلاقتي بحنان، لا نضع محاذير، أو نخشى التفسيرات الخاطئة. المتعة هدف نجري في اتجاهه.

داخل الضيق نبرات صوتها: هذه تصورات أنيس ... تحاول تنفيذها دون وعي.

أضافت في ضيقها: هو لا يقل شرًّا عن ياجو.

رنوت إليها بنظرة متوسلة، كأني أطلب عونها: ألا تلاحظين أني أعيش ظروفًا قاسية؟!

– أنت عاجز عن اتخاذ القرارات.

بقيت صامتًا، خشيت لو تكلمت أن أخطئ.

ضايقني قولها أني لم أكن أعرف ما يدور في الهيئة، سيطر أحمد أنيس على كل شيء، دان له العاملون بالرئاسة الفعلية، وهو الذي يأمر، ويوجه، ويزكي الترقيات والعلاوات، بينما جلستي داخل المكتب لا تتيح لي التعرف إلى ما بخارجه. قالت: كان يخفي عنك ما يحدث، وقالت: أوهمك بولائه وهو يضمر الشر، وقالت: صارحك بنفوري منه فاعتبرت مشاعري غيرة ... هل أغار عليك من رجل؟!

وهي تهش ذبابة عن وجهها: المشكلات لا تنتهي وتكتفي بالحيرة!

وزمَّت شفتيها المرتجفتين، كأنها تغالب البكاء: أليس غريبًا أن تحاول إطفاء النيران التي أشعلتها بنفسك؟

حدَست أن مزاجها قد تبدَّل.

قالت كلامًا كثيرًا، صفات واتهامات، لم أتصور أنها تواجهني بها: إني أعتمد على الآخرين، ولا أنجح بمجهودي الخاص، وإني ضعيف، ولا أستحق الشفقة.

أدركت أن الكلام معها لم يعد مجديًا. لا أطيق من ينسب لي أخطاء، أو يراجعني في تصرفاتي.

هل تورطت في المؤامرة ضدي؟ هل سكتت عن الخطوات الشريرة، حتى طالعتني النهاية القاسية؟

أردفَتْ في لهجة آمرة: دعني أتخذ القرارات بما يفيد حازم!

وتهيأَتْ للنهوض: سأحميه وأحمي نفسي، وهذا البيت!

وقعت على مئات الفواتير بفساتين وأحذية وقوارير عطر وأحمر شفاه وطلاء أظافر ومقصات ومبارد وأقلام حواجب وأمشاط.

هل تخشى نفاد مصاريف إزالة التجاعيد بالبوتوكس، وأقنعة تجميل الوجه، والتدليك، والمساج، والكريمات المستوردة، وحقن الكولاجين، وتمارين رفع الفخذ، والانتشاء بالأيروبكس؟

وأنا ألعق جانبي فمي: لاحظت تبدلك منذ تركت العمل!

لم أناقش الأمر حين اختارت البقاء في البيت، بدلًا من العمل في مركز البحوث الجنائية والاجتماعية: لدينا من النقود ما يكفي ... وزيادة.

ووضعت وجهها في راحتيها: أفضل أن أفرغ نفسي للبيت.

اكتفيت بالقول مداعبًا: لديك حالة تستحق العناية.

تريد أن تظل على حالها في التردد على الكوافير ودكاكين الأحذية والعطور والأزياء والمجوهرات.

رمقتها بنظرة لائمة: تخشين زوال الحياة المرفهة.

– بل أخشى زوال عقلي!

وومضت عيناها بقسوة لم أعهدها: تزوجتك وأنت لا تملك دفع إيجار شقة!

قلت إن علينا أن نتخلى عن الإيماءات والتلميحات، نعبر عما نريد التعبير عنه بالفعل، لا نخفي، ولا نهمس، ولا نتوقع.

أطلت من عينيها نظرة باردة: على أحدنا أن يترك البيت.

كيف أتخلص من هذه العَلاقة التي تذلني؟

الانفعال الذي قلص ملامحها، وشى بصدق التهديد. أحمد أنيس سجل كل شيء باسمي، ليس من حقها أن تأخذ كرسيًّا من الصالة. لم يكن ذلك لأنه خادمي — ثبت لي خطأ التصور — وإنما لأنها كانت ترمقه بعيني الاحتقار.

جاهدت لإظهار تماسكي: ربما وافقت على ترك البيت، لكنني لا أعد بمواصلة الإنفاق!

– لا أريد شيئًا!

– أنت لا تعملين ... وأعرف أنك لا تملكين ما تنفقين منه.

– سأعود إلى العمل.

– في الثالثة والأربعين؟!

– هذا شأني.

تحرص أن تبدو بمظهر الواثقة من نفسها.

– هل ستفتحين مكتبًا للاستشارات؟

– المهم أن أعمل، ولو موظفة صغيرة.

وعلا صوتها فبدا كالصراخ: لم أعد أتحمل، أريد الطلاق!

– الطلاق؟!

حدقت في عينيها، أستشف ما إذا كانت صادقة: ألم تفكري في تأثير ذلك على حازم؟

إذا وافقت على الطلاق، فأنا أعطي الفرصة لأحمد أنيس كي يدمرني تمامًا، يصبح مستقبلي كله ورائي.

– أعرف أنك تأثرت نتيجة تغير ظروفنا.

ولانت لهجتي: لا بأس من الانتظار حتى تعودي إلى نفسك!

قتلتني نظرتها الساخرة، الشامتة: المشكلة فيك أنت!

قلت في تذلل: انصحيني!

– فات أوان النصح!

ورمقتني بنظرة ساخطة: أنت في آخر الطريق التي اخترتها!

دنوت بوجهي، أبحث عن شفتيها، لكنها أبعدت ذقني بأطراف أصابعها، وأدارت وجهها إلى الناحية المقابلة.

– أنت تنسين ما يربطنا.

وهي تومئ إلى حازم: تقصد الولد؟

وشاب صوتها حدة: إن كان هو ما يربطنا ... خذه!

تنبهت للمعنى: إذا تركت البيت فسيسبقني الولد.

حدقت — بلا تعمد — في انفعالات وجهها، لاحظت خلوه من المساحيق، أو أنها اهتمت بما أخذه العمر.

– إذا تركت البيت فأنت تفقدين كل حقوقك، حتى رعاية حازم ليست من حقك!

أردفتُ في نبرة احتجاجية: تتكلمين عن شاب لا عن طفل، حازم في السابعة عشرة، إنه يعرف مصلحته.

– مصلحته في الابتعاد عن هذا البيت ... هذا الجنون.

– دعيه يقرر!

حركت يديها كمن تستجلب الهواء: لا أستطيع أن أتنفس الهواء الذي تتنفسه.

علا صوتها فبدا كالصراخ: لا أطيق!

لم يداخلني قلق حقيقي. كنت أعرف — لثقتي في طبيعتها — أنها ستتراجع، لن تسير في الطريق إلى نهايتها.

وأنا أحاول لملمة نفسي المبعثرة: أنا لا أريد الحرام!

في صوت ينضح بالعداء: هل تقنعني بأنك لم تعرفه على يد أستاذك؟!

– من؟

– لك أساتذة غير أحمد أنيس؟

– تصفين موظفًا عندي بأنه أستاذي؟!

– هو الآن رئيس المؤسسة.

– لا يملك الكفاءة ولا الندية ما يعطيه هذه الصفة.

حدجتني بنظرتها الساخطة: تصر على العيش في الوهم!

رددت الكلمتين بيني وبين نفسي، لكنني ظللت صامتًا، أعاني الحيرة والارتباك، أخشى نتائج لا أعرفها لو أن شفتي انفرجتا عما أكتمه، تبدو النتائج مجهولة، قد أواجه مالا أستطيع تحمله.

زاد نزولي إلى الطريق، لا أقصد مكانًا محددًا، ربما تأملت فاترينات المحال، أو تمشيت على كورنيش النيل. قد أستقل الباص إلى منطقة بعيدة، أظل — عند نهاية الخط — في مكاني، حتى يبدأ الباص رحلة العودة.

كيف أقنعها بأني أترك البيت لعَلاقات نسائية، ترضيني بما ترفض هي تقديمه لي؟

عندما تفصل أي جهاز عن تياره الكهربي، فإنه يصبح هامدًا. هكذا الجسد، إذا لم يتحقق الإيلاج في مصدر المتعة فإنه يتحول إلى الهمود.

أعرف أني لا أستطيع أن أغازل النساء. لم أفطن إلى المعنى حينما كان أحمد أنيس يتولى الأمر، يعبُر ما لا يشغلني من مسافات، أكتفي بالوقوف في خط النهاية، أصحب من يأتي بها، وأمضي.

شعرت أن في صدري حملًا من الكلمات ينبغي أن أتخلص منه.

كيف؟ ولمن؟

إذا كانت تتصور أنها ستحرمني من متعة أتوق لها، فإنه لم يعد يهمني حتى مجرد النظر إليها، أتنقل في الشقة كأني بمفردي، أنزل الطريق دون أن ألتفت ورائي. أمضي من شارع إلى آخر، لا أختار، ولا أعرف الشوارع التي خلَّفتها، أو التي أتجه إليها.

ضبطت نفسي أسرع في خطواتي، فلا تبعد المرأة التي اجتذبتني ساقاها.

١٣

ترددت على البنك قبل أن أمضي إلى موعد في جروبي. ذكرتني الوقفة أمام الشباك بإنهاء أحمد أنيس لكل ما أطلبه من الإيداع أو السحب. أغناني كارت الائتمان عن حمل النقود، لكنني لم أستعمله. كان أحمد أنيس يحصل على شيكات بما ينفق.

الساعات تنقضي في شوارع القاهرة، دون أن تتحرك السيارات من أمكنتها، الملل يقتلني في جلستي.

هدأت حركة السير عند نهاية شارع الأزهر.

انطلقت بالسيارة في طريق صلاح سالم.

في طابور السيارات المتجهة إلى الناحية المقابلة، في المحاذاة تمامًا، صرخت السيدة من صدمة السيارة، فتحت السيدة فمها وعينيها، حدست أنها تموت. عاد جاب الله السائق إلى الوراء، ثم جانَب موضعها، وزاد في سرعته.

استعدت نظرتي، وواصلت السير.

حذرني أحمد أنيس من العودة إلى موضع سقوط الحمار في الطريق الزراعي، قرب مدينة مشتول السوق.

قال لجاب الله: واصل طريقك!

ولكزه في كتفه: إذا عدنا للاطمئنان أو المواساة، فلن نضمن حياتنا!

عبرت تقاطعات الطريق، كأن السيارة تخترق — بإرادتها — زحام المرور. جاوزت ميدان السيدة عائشة، أطمئن في أسوار المقابر إلى المكان الذي أقصده. ملت من الشارع المفضي إلى جامع السيدة عائشة. التقاء الحدائق والأحواش والمقابر المتلاصقة في الخلاء لمحت مكانًا للسيارة في جانب الميدان الصغير. البحث عن مكان خالٍ لوقوف سيارتي يضايقني. تتلاصق السيارات في جوانب الشوارع فلا تأذن بركوب سيارة أخرى. لم أكن

أُعنَى بالأمر. يقودها السائق جاب الله، أو أتركها لتصرف أحمد أنيس، يرتب حياتي منذ الاستيقاظ إلى التوجه للنوم.

ثمة لحظات تنفصل عن الزمان والمكان، لا يشغلني من حولي ولا ما حولي. تحل السكينة، وطراوة اللحظة، أنسى ما يبتعد عن المكان الذي يحتويني، المناقشات، والمشكلات والمشادات والخلافات والمخاوف والقلق، يداخلني شعور بالاتصال بيني وبين الناس من حولي، كأن العالم قد اختُصر في هذا المكان، في هذه اللحظة، في هؤلاء المحيطين بي، أعرفهم، أو أنهم غرباء.

كان الرجلان يتهامسان أمام مكتبة الشروق بميدان طلعت حرب، وينظران ناحيتي، وابتسامة غامضة تعلو شفاههما.

شعرت أن الرجل في ركن «كنتاكي» ميدان التحرير يرمقني بنظرة مقتحمة. حولت عيني بعيدًا، هؤلاء الناس يحيكون لي في الخفاء ما يجعل حياتي مستحيلة.

انتترت — فزعًا — بالصيحة التي أعقبت اصطدامي بالجسد المندفع: حي!

وشى ارتداؤه الخيش بما دفعني إلى الالتصاق بالنافذة الزجاجية. ظللت أتابعه حتى غيبه زحام الميدان.

اخترقت الشوارع إلى مقام السيدة زينب، اتجهت — دون تلفت — إلى المقصورة الهائلة، يمتزج ضوء النجفة — من فوقها — بالضوء الصادر من النافذة المطلة على الميدان.

قرأت سورًا قصيرة، وأدعية، واتتني بها الذاكرة، حاولت أن أجد ما أخاطب به صاحبة المقام، فأعوزتني الكلمات، طالت الوقفة دون أن أنطق كلمة واحدة، عانيت اختلاط الأدعية والنداءات والاحتكاكات واللكزات. نبهني رفع الأذان إلى موعد الصلاة، تخطيت الصفوف التي قدم ناسها لصلاة الظهر، اخترقت زحام المصلين والزائرين، سرت — فيما يشبه الهرولة — إلى موضع السيارة.

أريد من ينفذ الأوامر، يحفظ أسراري الشخصية وأسرار عملي. يلجم لسانه فلا ينطق بغير كلمات الطاعة، لا يسأل ما يشي بالفضول. يعرف متى يظهر في حياتي الشخصية، ومتى يختفي. أنا صاحب الكلمة، أصدر الأمر فينفذه.

لو أني احتفظت بما في نفسي. الجانب الخفي في داخل الإنسان أشبه بالخزينة المغلقة، لا يفتحها إلا هو، لا يظهر ما بها لأحد، حتى لناسه، طبيعة المرء ميله إلى البوح والفضفضة، خزينة أسراره الشخصية يجب أن تظل مغلقة. هذه الأسرار التي لا يعرفها سوانا ... قد تكون سببًا لتوثق صداقتنا لأنفسنا.

تملكتني رغبة في أن أعيد تصويب ما أراه خطأً. أزمعت ألا أبوح بما في داخلي، هو رصيد أعود إليه في أوقات الوحدة، أراجع نفسي، وما أعانيه. أتظاهر بالتعالي، وإن داخلني شعور مؤلم بالوَحدة. أرفض مشاعر العجز والمهانة والخوف، ما صنعه في حياتي غدر أحمد أنيس، وتسخيف إجلال، وإذلال حنان.

تملكتني الحيرة: لا أعرف كيف أواجه المواقف؟ هل أصنع جدارًا غير مرئي من العرف الاجتماعي، باتساع المسافة بيني وبين الآخرين؟ هل أضع ملامح جادة؟ هل أرسم ابتسامة مرحبة؟ هل أتحدث في العمل، أو أجاوزها إلى العَلاقة الإنسانية؟

يلفني شعور بالوحدة، وأني أحتاج إلى من يكلمني، يؤنسني، يأخذ مني ويعطي، أبوح له بما يشغلني، ومخاوفي.

أتلفت، لا أجد حولي أحدًا ممن كانوا يستأذنون السكرتارية قبل أن أوافق على استقبالهم، يعيدون ذكر الأسماء والأرقام في «الأنسر»، حتى أرفع سماعة التليفون: آلو.

أغالب الشعور بأني أفتقد أحمد أنيس، هو الشخص الذي أطمئن إليه في هذا العالم، أبثه ما بداخلي، وأطلب ما أريده. ينصح، ويوجه، ويشير بما أفعله، أو يفعله هو بدلًا مني.

غاب أحمد أنيس عن حياتي. تلاشت القوة والسلطة والملاحظات والتنبيهات والأوامر والتعليمات والتوجيهات وإصدار القرارات والتوقيع على الأوراق، كأني ضالٌّ في خلاء لا ينتهي.

لم أعد أذهب إلى النوم في موعد محدد. أتمدد على السرير. أقرأ حتى يسقط الكتاب من يديَّ، وأروح في النوم. قرأت لكاتب أمريكي — لا أذكر اسمه — عن استغلال الوقت الضائع — هكذا سماه — في القراءة التي تقدم الفائدة والتسلية. أجول في الشوارع بصورة لم أعهدها في نفسي، أسير كما لم أسر من قبل. مدفوعًا بالحاجة إلى المشي.

لو أن حياتي عادت إلى ما كانت عليه، قبل أن يدخلها أحمد أنيس، هل كانت أحوالي ستتغير عما هي عليه الآن؟ هل أندم على ما فات، أو أعيد ترتيب المواقف؟

تصاعد الإحساس في داخلي. متى؟ كيف؟ أنه لم يعد بإمكاني العيش بدون أحمد أنيس، هو يعلم أكثر مما أعلم، يعرف كل شيء، وأنا لا أعرف إلا ما أذن لي أن أعرفه، كأن صوته يأمرني أن أفعل ما يريد، ما يحلو له، وأن التلبية هي ما أملكه، أنفذه دون أسئلة ولا اعتراض. لا أتصور أنه يمكن لي أن أفكر وأتكلم وأسأل وأتخذ القرارات، دون أن ألجأ إلى أحمد أنيس، يكون جانبي، ينبهني للمزالق والأخطار. يتولى القيام بكل ما قد أعجز عن أدائه. ربما فعل ما ينبغي أن أفعله.

أكثرت من التلفت، بحثًا عن الشخص الذي يحل محل أحمد أنيس. غابت الوظيفة، لكن حياتي لم تغب، هي قائمة ومستمرة. إذا وجدت من يعينني، فإن الأمل يظل في الأفق، أعمل بما يروقني، بما أتوقع أن أحقق فيه شيئًا. تغيظني الحياة على الهامش. لن أظل قعيد البيت، أقرأ الصحف، أشاهد التليفزيون، أطل من الشرفة. هذا الملل، ألجأ إلى من تفيدني نصائحه وملاحظاته، يؤدي ما لا أريد أن أؤديه، أهبه ثقة مطلقة، وإن أزمعت ألا أكرر الخطأ فأترك له نفسي، يعرف عن أحوالي ما لا ينبغي أن يعرفه، لا يمثل تهديدًا، ولا يتطلع إلى ما يصعب الحصول عليه. تصبح لي أسراري التي لا أبوح بها لأحد، أخفيها حتى عن نفسي.

تمنيت لو أن كل شيء، كل شيء، عاد إلى ما كان عليه في الماضي.

لم أعد قادرًا على استعادة ما مضى، ولا قادرًا على تبين حياة جديدة ينبغي أن أعيشها. تأخر كل شيء، لم يعد إصلاح الأمور ممكنًا. حتى إجلال لا أصدق حكاياتها، لا أتوقع من أحد شيئًا، إجلال جدار كنت أستند إليه، لم يعد موجودًا. أينا المخطئ، تلك ليست القضية، القضية غياب إجلال عن البيت، عن حياتي.

أتوقع شيئًا لا أعرف ملامحه، ولا أخمنها، يظهر في لحظة ما غير متوقعة، لكنني أثق في ذلك التوقع.

يؤلمني الشعور بالوحدة، لا أحد يحتاج لي، أحمد أنيس صديقي الوحيد. لما ابتعد، صرت بلا أصدقاء.

أشعر أني كائن بائس، وحيد.

أحمد أنيس: إني أفتقدك.

هنـــداوي